في هذا الصباح

قصص

أبو المعاطى أبو النجا

254
أصوات أدبية

أصوات أدبية

سلسلة نصف شهرية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

- في هذا الصباح - 254 - قصص - أبو المعاطى أبو النجا
- الطبعة الأولى - أول فبراير 1999

المراسلات

باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

رئيس مجلس الإدارة
د. مصطفى الرزاز

المشرف العام على النشر
علي أبو شادي

أمين عام النشر
محمد كشيك

رئيس التحرير
محمد البساطي

مدير التحرير
شحاتة العريان

ذلك الأثر

كنت قد انتهيت من ارتداء ملابس الخروج فى ذلك الصباح، وكالمعتاد وقفت أمام المرآة ألقى نظرة أخيرة على هندامى، فوجدت يدى تمتد إلى المشط الموضوع فوق التسريحة، وتمضى به فى حركات شبه محفوظة فى شعرى تبدأ من مفرقه جهة اليسار إلى جانب رأسى الأيمن.

فى ذلك الصباح فوجئت بحفيدى الذى كان يقف خلفى تماما دون أن أشعر به، يقول:

- جدى.. أنت ليس عندك شعر يا جدى!

حملت الصغير بين يدى وقبلته وأنا أقول له:

- متى صحوت أيها العفريت؟

حاولت بتوجيه سؤالى له أن أهرب من سؤاله المضمر، ولكن الصغير لم يلبث أن نسى السؤالين معاً حين وقعت عيناه على لعبة كانت قد ضاعت منه خلف أحد المقاعد،

فانحشر خلف المقعد ليصل إليها.. أما أنا فقد وجدت نفسى - وربما دون قصد - أعود إلى التفكير فى ملاحظة حفيدى التي نسيها!.

لم أكن أجهل طبعاً أنه ليس عندى شعر ولكني تعودت أن أتعامل مع ما تبقى منه كما كنت أتعامل معه حين كان غزيراً وأسود، وقتها كنت أسرحه أيضاً من اليسار إلى اليمنى، فقد كانت تلك هي الطريقة المناسبة لإخفاء تلك البقعة المستطيلة من جلد رأسى التى تخلو تماما من الشعر، والتى سوف تظهر لا محالة لو سرحت شعرى إلى الوراء، مع أن تلك كانت هى «المودة» فى تلك الأيام تأسياً بالنجم أنور وجدى، كنت حريصاً منذ أيام الشباب الباكر على أن أخفى ذلك الأثر الذى أحمله فى مقدمة الجبهة من آثار الكى بالنار الذى تعرضت له وأنا طفل صغير كمحاولة أخيرة لإنقاذى من مرض حار فيه طب تلك الأيام فكان آخر الدواء الكى! وفى الواقع أنه لم تكن تلك البقعة المستطيلة الخالية من الشعر فى مقدمة رأسى هى الجزء الوحيد الذى تعرض للكى بالنار من رأسى، فقد كانت

هناك بقعة أخرى مستديرة فى حجم القرش فى قمة رأسى تماما قد تعرضت للكى بالنار، وأصبح جلدها ميتا لا ينبت فيه شعر، ولكنها فى موقعها الحصين العالى لم تكن تسبب لى أية مشكلة، فلا أحد يمكنه أن يراها هناك، ولهذا فلم تكن تؤثر على طريقة تسريحى لشعرى.

ولأول مرة أجد نفسى - بقصد هذه المرة - أطيل التفكير فى معنى سلوكى الذى أمارسه كل صباح بدرجة من الآلية، وكأننى لا أزال أخاف أن يرى أحد ذلك الأثر الباقى فى مقدمة رأسى، نعم ذلك الأثر الذى لا يكاد يبين حتى لعينى، فمن يمكن أن يلاحظه الآن؟ أو من يهتم بأن يلاحظه؟!

ومع ذلك، فكل هذه البديهيات لم تنجح فى إنقاذى من عادة قديمة حتى جاء حفيدى ليفتح عينى على ما لا أريد أن أراه!

أين اختفى الصغير؟ كان لايزال يجاهد فى البحث عن لعبته التى لاحت لعينيه من مكنها خلف المقعد إثر نظرة عابرة!

كان ما لا أريد أن أراه بحق هو سؤال آخر تولد عن السؤال المضمر فى ملاحظة حفيدى.

أكانت هذه البقعة الخالية من الجلد فى مقدمة رأسى هى الأثر الوحيد الذى تخلف عن حادثة الكى بالنار، والذى أحرص على إخفائه، أم أنه كانت هناك آثار أخرى ربما أخطر.. ربما أغزر، تركها هذا الحادث ليس فى جلدى بل فى شخصيتى وفى سلوكى؟

ترى كيف كنت أشعر بها؟ وهل كنت أسعى إلى إخفائها؟ وبأى الطرق؟ وهل كنت أنجح فى لعبة الإخفاء تلك أم أن الآثار على هذا الجانب كانت أكثر خفاء وتعقيدا من أن أراها فى حجمها وفى حقيقتها مثلما كنتُ أبصر بقعة الجلد المستطيلة؟! وبالتالى فلم أفعل شيئاً لإخفائها، ربما يراها كل الناس ما عداى، وربما يدركون ما تعنيه دون أن أدركه؟! وانصرفت جهودى الرائعة لإخفاء بقعة الجلد المستطيلة فى مقدمة رأسى!.

السؤال الدليل

وجدت سؤال حفيدى - الذى نسيه تماما - يقودنى هذه المرة دون هوادة أو رحمة إلى رحلة كنت - دون سبب واضح - أتجنب السير فى طريقها!.

لماذا كنت أتجنب التفكير فى هذه الواقعة برمتها، لماذا ظلت ذكرياتى عنها شاحبة وباهتة؟ لقد عاش أبى حتى رأى أولادى، وكذلك عاشت أمى، وكلاهما من شهود الواقعة ومن العارفين بكل ما يتصل بها دون شك، فكيف لم أصارح أحدهما أو كليهما بما كان يختلج دائما فى داخلى حول هذه الواقعة؟!

كيف قنعت بثرثرة أمي حول إخوتى الثلاثة الذين جاءوا قبلى إلى الدنيا ثم رحلوا عنها قبلى، وكانوا يخافون علىّ من مصيرهم، ثم تقفز أمى فى حديثها عن الواقعة من أسبابها إلى نهاياتها، فتقول إننى ظللت بعد حادثة الكَىّ أملأ حجر جلبابى بالأحجار وأقذف بها باب بيت الرجل الذى كوانى بمسمار النار مع أن تلك كانت مهنته فى القرية يقوم بها مع الصغار والكبار والحيوانات

بكل أنواعها.

لم يكن ما أهتم له هو الأسباب أو النتائج، ولكن ما كان يهمنى هو الواقعة ذاتها، كيف حدثت؟ وحين سألت عنها أبى ذات مرة لم يجب، بل انخرط فى البكاء، فلم أعد أبدا لسؤاله مرة أخرى! ما كان يهمنى بحق هو كيف مر طفل عمره أربعة أعوام بهذه التجربة؟ كيف أمسكوا بى. يقينا لم يكن أبى هو الذى فعلها، قلبه أرق من أن يفعل هذا بأى طفل..! دعك من كونه أبى؟ هل كنت أدرك على أى نحو ما أنا مقدم عليه؟ أو مايراد بى؟ هل كانوا يهتمون بإخفاء ما يريدون أن يفعلوا بي حتى اللحظة الأخيرة على الأقل؟ ومع ذلك فكم يا ترى دامت لحظة الإدراك القاسية تلك؟ ومن الذى فعلها؟ أقصد من الذى أمسك بى، لقد حدث فعل الكى مرتين، ومعنى ذلك أنه كان هناك وقت ممتد، وإدراك ممتد، ما الذى دار فى رأس الطفل الذى كنته بعد المرة الأولى، بعد الصدمة الأولى لو بقيت فى رأسه قدرة على التفكير..! ثم بعد المرة الثانية؟ هل تصور الطفل الذى كنته أنه ستكون هناك ثالثة وربما

رابعة؟ إذ ما الفرق؟ وما المعنى؟ وما المنطق؟.

شغلنى دائما أمر الرجل الذى أمسك بى، لابد أنه كان عملاقا، قادرا على أن يوثقنى بيديه فلا أفلت منه طوال هذه المدة!.. لم يحدثنى أبداً أحد عنه، والغريب أنى لا أتذكر أبدا صورته! لابد أنه كان أحد أعمامى، لابد أنه كان شخصا أثق به، وأطمئن إليه لأمضى معه بهدوء إلى ما يراد بى، كانت تلك أول خبرة لى مع دنيا الخداع والمخاتلة مع انهيار الثقة فيمن تحب! مع اختلاط الخير بالعذاب والألم! مع الذين يقولون لك: إن كل هذا العذاب لا مفر منه.. لكى تنجو.. لكى تعيش.. كنت أعيش لأول مرة وأنا طفل فى الرابعة من عمرى خبرة المشى على الصراط فوق النار لكى أصل إلى فردوس الحياة؟.

كيف فهمت وقتها معنى أن أبى لم يكن موجودا؟! معنى أنه تركنى لهم أو قادنى إليهم، ولم يحضر حين ناديته صارخا وملهوفا؟

كيف فهمت معنى جهله أو تواطؤه أو عجزه عن إنقاذى من أيديهم؟

أين وكيف أخفيت كل هذا الرعب الذى تفجر فى داخلى عبر تلك اللحظات المرعبة؟ أين وكيف أخفيت شكى فيمن وثقت بهم، وكراهيتى لمن أسلمونى لهم، لمن عجزوا - رغم محبتى لهم - عن إنقاذى مما يحدق بى؟ ثم كيف عدت أحبهم من جديد دون حقد أو ضغينة أو بهما خافيين ملتبسين!!

وفجأة تراءى لى فى وضوح قاس أن كثيرا ممن كنت أظنه بعض صفاتى الطيبة طوال سنى عمرى ربما لم يكن سوى أسلوبى الطفولى فى تجنب الهول الذى كنت أخشى أن يأتينى فجأة ممن أحبهم وأثق بهم؟! وكيف حدث أن تصالحت عبر الأيام والسنين مع أبى وأمى وأعمامى؟ وماذا كان الثمن الذى دفعته أو دفعوه هم أيضاً من أجل أن يتم هذا التصالح؟ ومرة أخرى خيل إلىّ أننى أرى فى وضوح قاس، وربما لأول مرة ثمن ذلك التصالح فى ألوان من سلوكى ما كان بمقدورى أن أنجح فى إخفائها تحت أى شَعرٍ أو شِعَار؟!

المخاوف اللامعقولة التى كانت تظهر فجأة على

السطح حين تلوح أمامى فرص للنمو وللمغامرة، فتخطفنى من أمام الفرصة أو تخطف الفرصة من أمامى حين أتردد فى اتخاذ المبادرة التى قد تكون مجرد كلمة أو خطوة أو ابتسامة أو قرار!

ذلك الغضب فى ذلك البلد:

لم أشعر أبدا بالخجل فى أى يوم مما كنت أعتقد دائما أنه جزء من صفاتى الطيبة حتى ذلك اليوم الذى سمعت فيه ذلك الإطراء، لبعض هذه الصفات من رجل غريب فى بلد غريب، وربما كانت هذه الغربة هى التى دفعت الرجل لكى يقدم تأسيسا لهذا الإطراء، فقال:

- إن فيك تلك الطيبة التى تميز الكثير من المصريين ولأول مرة لم أسترح لهذا الإطراء، ورحت أخفف من غضبى بملاحظة ملابسات خاصة أحاطت بموقف الرجل الغريب فى البلد الغريب.

رؤية :

لا أدرى ما الذى جعلنى أتذكر فجأة هذه القصة التى وقعت منذ وقت بعيد فى ذلك البلد الغريب فى هذا الصباح.. لا أدرى ما الذى جعلنى أشعر حين تذكرتها بأننى أشم رائحة شىء يحترق، كأنه شعر رأسى، واختلطت تلك الرائحة بصورة غريبة غامضة لعملاق أمسك فى قبضته الخرافية التى تحتوى على آلاف الأصابع بأعناق كل المصريين، وراح يكويهم فى جباهم بالنار بحجة أنه ينقذهم من هلاك محقق أو يقودهم لخير عميم، وليتعمد ذلك الشعب بطيبة الخائفين!.

الحفيد يصرخ :

صراخ حفيدى هو الذى أيقظنى من هذه الرؤية المرعبة. حفيدى الذى كان يحاول استخلاص لعبته الضائعة، لقد نجح فى الوصول إلى لعبته، ولكنه أصبح عاجزا عن الخروج من المأزق الذى وضع نفسه فيه لكى يصل إلى لعبته.. خلف المقعد، ولم أشأ أن أتعجل فى

تقديم العون له، خلف المقعد، كنت مطمئنا إلى أنه سوف ينجح فى تخليص نفسه، وأنه يستحق بعد ما فعله بى أن يعانى قليلا، مادامت هذه المعاناة لن تفقده القدرة على التذكر!

مارس سنة ١٩٩٤

مفاجآت سلمى عواد التي لا تشتهي

ألقى بنظرة سريعة على الورقة التي تضم أسماء من اتصلوا به فى المكتب قبل وصوله، توقفت نظرته أمام اسم «سلمى عواد»، ومع أن النظرة كانت شاملة للورقة كلها، فقد ضاعت منه الأسماء الباقية كما ضاعت من ذاكرته الأسماء السابقة «سلمى عواد» تتصل به، من أين يا ترى؟ من الخارج أم من هنا فى القاهرة؟، فى المرات السابقة كانت تتصل به فى المنزل سواء من بلدها فى الخارج أم من القاهرة؟ ضغط الجرس على مكتبه، سأل السكرتير الذى أعد الورقة وهو يشير إلى اسمها.

– سلمى عواد هذه هل قالت شيئا؟ ألم تترك رسالة؟

– قالت سوف تتصل مرة أخرى!

– ألم تقل متى؟ أو من أين؟

– قالت ستتصل بعد ساعة أو أكثر.

ساعة أو أكثر لا تكفى لكى يسترد نفسه التى بعثرتها

المفاجآة، فى كل مرة اتصلت فيها «سلمى عوّاد» كان لاتصالها وقع المفاجأة نفسها، كيف يبقى أمر له وقع المفاجأة بعد كل هذه السنين؟ «سلمى عواد» تبقى مفاجأة طازجة دائما، تتخايل أمام عينيه تلك الطفولة الأبدية تعبر عنها أولا ملامح وجهها، ابتسامة رائقة، وعينان صافيتان، يهيئان لها قبولا منذ الوهلة الأولى، ثم يأتى سلوكها ليؤكد هذه الطفولة فأسئلتها مباشرة حادة كرموش عينيها، وضحكتها لا تتجاوز ابتساماتها إلا قليلاً، تخرج مكتومة من أعماق حلقها، كأنه تخشى أن تخدش الهدوء الذى يغمرها حيثما تكون!.

[أول مرة رآها كانت في الحفلة السنوية التى تقيمها المؤسسة التي عمل بها سنوات فى الخارج، كان إلى جوارها شاب بالغ الوسامة، اقتربت منه كما لو كانت تعرفه حق المعرفة قالت له:

- أستاذ رءوف.. اسمح لى أن أعرفك بزوجى طارق..

حيّا زوجها بمودة، قبل أن يقول لها محاولا أن ينقل إليها بعض دهشته من سؤالها.

– ولكنك لم تعرفينى بنفسك!

تدخل زوجها حين رأى زوجته تغرق فى حمرة الخجل.

– سلمى موظفة جديدة عندكم فى المؤسسة، ولكنها تعرفك جيدا ودائما كانت تحدثنى عنك!

قال ضاحكا محاولات أن يستوعب الموقف، وأن يتجاوزه:

– يبدو أننى موظف غير كفء، فكيف لا أعرف أن عندنا موظفة بهذا الجمال؟!

كانت فى مثل سن ابنته، فلم يجد حرجا فى مبادرتها بمثل هذه التحية فى أول لقاء بينهما، وأمام زوجها، الذى بدا فخورا بمثل هذا الإطراء لزوجته!

أما هى فقد تضاعف شعورها بالخجل والفرح معا وهى تقول:

– لقد جاء زوجى ليتعرف عليك، وليرجوك أن تساعدنا فى الطلب الذى قدمته لرئيس المؤسسة لكى أنتقل إلى العمل فى القسم الذى تشرف عليه!

قال محاولا أن يعطى نفسه فرصة للتوازن أمام ما

وجده أكثر من مفاجأة!

– طبعا لا مانع عندى، لكن رئيس المؤسسة لم يفاتحنى بعد فى هذا الموضوع، ولا أريد أكثر من فرصة للتفاهم معه بشأنه].

«كانت هذه أولى مفاجآت سلمى عواد التي لا ينساها».

* *

(قال له رئيس المؤسسة فى أول لقاء بينهما:

– السيدة سلمى مهندسة تملك الكفاءة، ولكنها كما لاحظت تملك قدراً كبيرا من الجمال، وقدراً أكبر من البراءة، ويسببهما تتورط فى بعض المشكلات مع زملائها من المهندسين الشبان فى القسم الذى تعمل به، وفى الحقيقة الوزير أوصى بها خيراً، كما أخبرنى زوجها بأنها بالرغم من تخصصها فى الهندسة تهوى الكتابة، وربما لو نقلناها إلى قسم العلاقات العامة لتعمل معك نكون قد حللنا أكثر من مشكلة).

«لم يكن يعرف أنه بقبوله لمثل هذا الحل لمشكلات

سلمي عواد سوف يفتح الباب لمشكلاتها معه، كان يظن أن زمن هذه المشكلات قد مضى بالنسبة له، على الأقل، أما هى فقد حاولت أن تشرح فى بداية عملها معه، كيف أنها لم تكن تسعى أبداً إلى خلق مشكلات مع أحد، وأن الآخرين، وبخاصة المهندس ممدوح هم الذين كانوا يختلقون المشكلات، ولكنه أراد منذ البدء أن يغلق أمامها باب الشكوى، قال لها بوضوح:

- اسمعى، لم أكن أحب وأنت فى بداية حياتك العملية أن أشجع أسلوبك فى الهرب من المشكلات، فعملك معنا فى قسم العلاقات العامة يحتم عليك التعامل مع الجميع، واعتقادى أن أى إنسان رجل أو سيدة هو الذى يحدد بطريقة تعامله مع الناس طريقتهم فى التعامل معه، هل تفهمين معنى هذا الكلام؟

- نعم أفهم.. لكن..

وقاطعها قائلا:

- لقد وافقت على انتقالك للعمل عندنا لأن رئيس المؤسسة قال: إنك تجيدين الكتابة، وعندنا مجلة يمكن أن

تمنحك الفرصة لو كنت حقا تملكين هذه القدرة، فنحن فى حاجة إلى من يفهمون الموضوعات الفنية التى تتناولها المجلة أحيانا والآن سوف تعطيك الزميلة فوزية أعداداً من مجلتنا، وفكرة عن عملك الجديد وسأنتظر ما تقترحينه من موضوعات جديدة للمجلة»!.

لم يكن يدرى لماذا بدا منه كل هذا الحرص على أن يكون معها محدداً وموضوعيا فى أول لقاء فى مكتبه، أكان يقاوم دون أن يشعر تلقائيتها الدافقة التى كانت تعبر عنها فى هذا اللقاء ملامح وجهها الجميلة والبريئة معا وهى تقاوم رغبتها فى الكلام، فى الإفصاح عما يمكن أن يكون قد وصله من معلومات عنها؟ أم كان يقاوم تلقائيته هو حين عبر عن شعوره التلقائى بجمالها فى أول لقاء بينهما، وقبل أن يعرف شيئاً عنها وعن احتمال أن تعمل معه، لقد خُيل إليه فى لحظة خاطفة كأنها كانت تدرك ذلك كله، حين خرجت من مكتبه، وهى تحييه بابتسامة رقيقة واثقة، وكأنها لم تنزعج أبداً من كلماته الباترة فى أول لقاء بينهما فى إطار العمل.

مفاجأة سلمى عواد الثانية

حدثت المفاجأة الثانية من سلمى عواد بعد شهور من عملها فى قسمه خلال هذه الشهور لم يكن يشعر بوجودها، أو بأى وجود لما أسموه مشكلاتها، وأصبح يقينا لديه ما كان موضع تساؤل عن مقدرتها على الكتابة، كانت تعرض عليه الموضوعات التي تقترحها للمجلة بعد أن تنفذها بالفعل، وكأنها على ثقة من سداد هذه المقترحات وفى الوقت نفسه كانت تظهر استعدادها لتغييرها لو لم تلق قبولا وبالفعل لم تتجاوز ملاحظاته على هذه الموضوعات سوى تعديلات طفيفة فى شكل الموضوع وليس على فكرته، وحين أظهر لها فى البداية أنه كان يفضل أن يناقشا الفكرة أولا قالت:

- أخشى ألا أجيد عرض الفكرة، والموضوع المكتوب يكون أكثر إقناعا.

وهكذا مضت علاقتها به، تدخل كنسمة هادئة، تلقى بكلماتها فى همس، وتتلقى ملاحظاته فى هدوء، ولم يمنع هذا التحفظ الظاهرى منها أو منه شعوره الخفى بهذه التلقائية المقموعة وراء رغبة فى التأكيد على أنها لن تكون أبدا مصدرا للمشكلات من أى نوع!

ذات يوم دخلت إلى مكتبه لم يكن لها ذلك الوجه الجميل الرائق، ولم يكن لعينيها ذلك الصفاء الطفولى وجد نفسه يقول لها:

- ماذا بك؟

- هناك أشياء حدثت، ربما لم يحدثك بها أحد، ربما لا يجرؤ أن يحدثك بها، لا أتصور أن تعرف بها من غيرى، فأنا التى تسببت فيها، وأريد أن تسمعها منى فى الوقت الذى تراه مناسباً، وبعدها أنا مستعدة لأى شىء حتى ولو كان ترك العمل فى المؤسسة كلها!

قال لها بصوت جاهد أن يكون هادئاً:

- اجلسى الآن وتكلمى...

ثم طلب من سكرتيرته ألا تدخل أحدا حتى يأذن لها

أنفجرت سلمى فى البكاء، قال لها بحزم:

- من الأفضل أن تهدئى حتى أفهمك.

قالت وهى تبذل جهداً كى تتماسك:

- أستاذ رءوف حاولت أن أنفذ بدقة كل تعليماتك، وأتعلم منها، وحين صدر التكليف بعمل تحقيق فى المجلة عن افتتاح القطاع الجديد للتعدين، لم أتردد فى التعاون مع كل المهندسين فى القطاع بمن فيهم «ممدوح» الذى سمعت عنه، وقد صممت على أن تكون هذه فرصتى لأترجم نصيحتك لى بضرورة التعامل مع كل الزملاء بطريقة تمنع المشكلات، أنا لا أعرف كيف يحدث الخطأ؟ كان من الممكن أن أكتفى فى عمل التحقيق بالتعامل مع غير «ممدوح» من المهندسين، ولكني أردت أن أثبت لك وله، أننى أتعامل مع الجميع بلا خوف أو حرج، هو الذى لم يفهم هو الذى قال لى حين ذهبت إلى مكتبه لأجرى معه حواراً حول نشاط الجزء المسئول عنه، وعلي وجهه ابتسامة المنتصر.

- كنت على ثقة من أنك سوف تعودين!

قلت له:

- أستاذ ممدوح أرجوك لا تخطئ الفهم، الأستاذ رءوف هو الذى طلب منى أن أغطى كل أنشطة القطاع وأريد أن....

قاطعنى قائلا:

- أنت التى تسيئين بى الظن دائما.. أردت مجرد الترحيب بزميلة طال غيابها.

- ما تقوله أو تفعله هو الذى يخلق الظنون والمشكلات!

- إذن أرجو أن تقبلى هذه المرة اعتذارى عن أى شىء حدث فى الماضى، وإذا كان مَيلى للمزاح أحيانا يسبب لك إزعاجا فلن أعود إلى هذا أبدا، والآن أنا تحت أمرك، ولنفتح صفحة جديدة.

«كنت متلهفة على أن أثبت لك قدرتى على العمل مع الجميع بلا مشكلات، وجدتنى أميل إلى تصديقه، وحتى لا أعود لك بشكوى جديدة وأجريت معه الحوار المطلوب، وكان لأول مرة فى غاية من الجدية، ففرحت بما ظننته انتصارا معه ومعك، وأصبحت أتعامل معه مثلما أتعامل

مع غيره ،وبخاصة أن هذا التعامل كان محدودا لم أتصور لحظة أنه سوف يستغل هذا التعامل الطبيعى والمحدود منه ليجعل منه غطاء يعطى للقصة التي بدأ يشيعها بطريقته بين الزملاء فى المكاتب.. ما يجعلها قابلة للتصديق ارتجفت ملامحها مرة أخرى بالبكاء..

قال لها والقلق يستبد به:

- ما القصة التي بدأ يشيعها بين الزملاء؟

- تصور يا أستاذ رءوف أنه يزعم أننى شكوت إليه منك، وأننى أقول له: إن الأستاذ رءوف نفسه واقع فى غرامى، وأننى أصبحت كالمستجير من الرمضاء بالنار.

زميلتنا فوزية وحدها هى التى صارحتنى بما يهمس به بين المكاتب، لم تسمع منه القصة، ولكنها سمعتها من غيره، كدت أجن يا أستاذ رءوف، لو كان الأمر يتصل بشخص آخر غيرك ما أهتممت به! ولكن أن يصيبك هذا الأذى وبسببى، قلت لفوزية:

- سوف أذهب إليه فى مكتبه وأضربه بحذائى..

ولكنها هى التى نصحتنى بألا أفعل قالت:

- يا مجنونة سوف تسببين للأستاذ رءوف ولنفسك فضيحة في المؤسسة، المهم أن تقطعى علاقتك به تماما فلا أحد يأخذ كلام ممدوح مأخذ الجد، ولكن استمرار تعاملك معه هو الذى يعطى بعض الصدق لكلامه! ظللت فترة متحيرة لا أدرى ماذا أفعل؟ خشيت أن تسمع بهذه القصة من أحد غيرى فلا أجد فرصة لأشرح لك الحقيقة لا أدرى لماذا أشعر أنك تصدقنى، وأنا فى النهاية مستعدة لأى شىء، أن أواجه ممدوح أمامك، أن أترك المؤسسة فى هدوء دون أن أسبب حرجا لك!

قال لها وهو يبذل جهدا للتماسك:

- كنت أظن أنك على شىء من السذاجة، ولكنى لم أتصور أن تكونى ساذجة إلى هذا الحد؟

انخرطت مرة أخرى فى بكاء مكتوم.. قال لها بحسم:

- الشىء الوحيد المعقول هو ما قالته لك فوزية، أن تقطعى علاقتك بممدوح هذا، وعدا ذلك لن يتغير شىء، إذ فاتحك أحد من الزملاء فى الموضوع قولى له الكلام نفسه الذى قلته لى واستمرى فى عملك هنا كالمعتاد، ثم حاولى

أن تنسى الموضوع كله!

حين خرجت من مكتبه كان وجهها يشرق بابتسامة صافية مع أن عينيها كانتا لا تزالان غارقتين فى الدموع!.

مفاجأة سلمى عواد الثالثة

كان تقديره بعد هذه المفاجأة الثانية من سلمى عواد أنه ربما كان مخطئا حين تعامل معها من البداية بهذا القدر من التحفظ، وأنه لو أعطى لنفسه ولها فرصة أفضل للحوار لكان من الممكن تجنب مثل هذه المفاجآت، ولكن المفاجأة الثالثة حدثت بأسرع مما يتوقع، وقبل أن يخطو خطوة واحدة فى تغيير طريقة تعامله معها، زوجها طارق هو الذى جاء لزيارته فى مكتبه، كانت سلمى قد أخبرته بالقصة كلها، بعد أن أخبرته بها جاء ليقول له: إنه لا يطمئن على عمل زوجته فى مكان مثلما يطمئن عليها وهى تعمل معه، وأن ثقته فى زوجته وفيه بلا حدود، وأنه جاء ليرجوه ألا يتأثر لحظة بسخافات ممدوح هذا، وأنه يشكره

على موقفه المتفهم لكل شيء!.

انتهت الزيارة ولكن حيرته لم تنته، لعلها كادت تبدأ، أى نوع من الناس سلمى عواد هذه؟ لقد أصبحت رغبته فى أن يفهم هذه المخلوقة تعادل رغبته فى أن يقدم لها نوعا من الحماية، لعل حاجتها إلى الحماية من نفسها لا تقل عن حاجتها إلى الحماية من أمثال ممدوح؟! ولكن لماذا يزج بنفسه فى تلك المتاهة، هل يمكن أن تكون البراءة الشديدة مثل الغموض الشديد تيه بلا حدود وجاذبية بلا حدود؟! لكن شعورا بالاطمئنان بدأ يتسرب إليه فى هذه اللحظات مبدداً هذه الحيرة فها هى سلمى عواد باقية للعمل معه تحت مظلة سابغة من الأمان والثقة، يراها على مهل، يفهمها على مهل، يستمع على مهل إلى أسئلتها التي كان يقمعها بتحفظه الشديد فى بداية عملها معه، أسئلة كانت تأتى أحيانا عَبْر الأحاديث العابرة، وأحيانا عَبْر أحاديث العمل ذاته، أسئلة قد تكون المفتاح لفهم عالم سلمى عواد.

أسئلة سلمى عواد المقموعة

كان هو الذى قال لها يوما فى شهور العمل الأولى:

- لكى يقرأ الناس ما نريد لهم أن يقرءوه فى مجلتنا عن نشاط المؤسسة لابد أن تقدم لهم المجلة ما يحبون أن يقرءون عن مشكلات حياتهم الخاصة والعامة.

هل كان يتوقع أن يضعه هذا القول أمام هذا النوع من الأسئلة التى بدأتها سلمى عواد حين بدأت تشعر بأنه يعطيها فرصة للسؤال مثلما يعطى نفسه فرصة لإجابات ممتدة وهادئة!.

كانت هى التي قالت له يوماً:

- كنت أظن أن الناس لا يكذبون إلا لأن هناك أسباباً قوية تضطرهم إلى الكذب، قد نعذرهم لهذه الأسباب أو لا نعذرهم لكن هل يمكن أن يكذبوا أحيانا دون أسباب؟!

قال لها وهو يدارى شعوراً بالمفاجأة:

- ربما لهم أسباب لا تتضح لنا.

ثم أضاف بعد أن لمح فى عينيها بعض الحيرة:

- وأحيانا ربما لا تتضح لهم أنفسهم، فالمشكلة هى

أننا قد لا نتبين كل دوافعنا للصدق أو للكذب؟! قالت ومساحة الحيرة تزداد فى عينيها:

– كنت أظن أن الكذب وحده هو الذى يحتاج إلى دوافع؟!

قال لها:

– أحيانا تكون للصدق دوافع تتجاوز مجرد الحرص على الإخبار بالحقيقه بأمانه !!

– هل تظن أن مناقشة مثل هذا الموضوع تصلح لمجلتنا؟

– أفضل أن تبحثى عن موضوع آخر!

وجاء يوم تقدمت بموضوع آخر فى شكل سؤال أيضاً:

– ألا تظن أن دخول المرأة إلى العمل في هذا العصر يطرح هذا السؤال، هل يمكن أن تقوم صداقة بين الرجل والمرأة؟

قال لها:

– أظن أن هذا السؤال يصلح تحقيقا للمجلة، قد يجلب لنا الصداع ولكن يمكن أن نعطى فرصة لمعرفة

الآراء من حوله؟! حتى ولو كانت بالرفض!

– هل يمكن أن أعرف رأيك أنت أولا؟

– طبعا ممكن، ولكنى كمسئول فى المجلة أفضل أن تكون مساحة الإجابة كاملة للقراء.

– أود أن أسمع رأيك أنت!

– أظن أنه ممكن لو كان عند كل من المرأة والرجل مفهوم واحد للصداقة، ولدى كل منهما القدرة على الالتزام بحدود هذا المفهوم!

– هذه إجابة تخفى شبح الرفض!؟

– الأمر يتوقف على ظروف المجتمع الذى نعيش فيه، فقد تسمح بتوافر هذه الشروط أو عدم توافرها!

– ألا ترى أن ظروف المجتمع الذى يعيش فيه غرباء من بلاد كثيرة ويعملون، مثلما هو الحال هنا، تجعل الحاجة ماسة إلى مثل هذه الصداقة، ولكن الظروف الخاصة بنمو المجتمع نفسه تجعل تحققها شيئا عسيرا حتى بين الرجل والرجل!

– صحيح.. وذلك جزء المشكلة!

ومع تتابع أسئلة سلمى عواد داخل وخارج تحقيقات المجلة بدأ يعيد النظر فيما كان يسميه سذاجتها، بل بدأ يقول لنفسه: هل كان يمكن أن تنبع هذه الأسئلة إلا من هذه البراءة.

قالت له يوما وقد أصبح لا يفرق بين أسئلتها سواء أكانت داخل تحقيقات المجلة أو خارجا:

- أريد أن أعرف رأيك فى هذه الشائعة التي يرددها الناس مثل المسلمات عن اختفاء الحب بعد الزواج، هل الزواج عدو للحب؟ أم أن هناك سوء فهم لفكرة الزواج أو فكرة الحب؟ أصبح يجد متعة فى الإجابة على أسئلتها، بل أصبح فى لهفة على مثل هذه الأسئلة! وإن كان لا يظهرها!

قال لها:

- أظن أنه سوء الفهم، ففى الظروف العادية، ليس من الضرورى أن يختفى الحب، ولكنه يتغير فى شكله ومضمونه بتغير الظروف التى تختلف بعد الزواج بطبيعة الحال، ولكنه يبقى، كما يبقى الطفل فى المراهق، وكما

يبقى المراهق فى الرجل وكما يبقى هؤلاء جميعا فى الكهل، لا شىء يختفى، ولكن الأشياء تتغير! وتحدث المشكلات حين لا نعترف بهذا التغير!

لا يدرى لماذا كان يحرص على أن يجيب على أسئلتها بكل هذه الجدية مع أنه كان يسعد بها، أكان لايزال يخشى من تلقائيتها وتلقائيته أم كان يدرك أن مثل هذه الجدية تشجعها على أن تمضى فى أسئلتها إلى الحدود القصوى بلا خوف أو حرج!

ولكنه لم يتصور يوما أن تفاجئه بهذا السؤال: إنه لا يتذكر السياق الذى جاء فيه هذا السؤال، ولكن السؤال نفسه هو الذى بقى فى ذاكرته:

- هل تعتقد أن الخيانة الزوجية لا تكون إلا فى الفراش؟

وأمام ما كان يظنه مفاجآت سلمي عواد وجد نفسه يجيب على سؤالها وكأنه يمنح نفسه فرصة أمام الهجوم المباغت.

- لا أظنك تفكرين فى السؤال كموضوع لتحقيقات المجلة!

- لا.. فى الحقيقة أريد أن أعرف رأيك أنت!

قال بالجدية نفسها التى اعتادها مع أسئلتها:

- الخيانة هى شىء ضد الأمانة والصدق، فى كل العلاقات وفى كل المواقف لا تختص بالعلاقة بين الرجل والمرأة، ولا ترتبط بزمان أو مكان!

أكان يجيب على سؤالها؟ أم كان يهرب منه ومنها؟ أم كان يمعن فى إزالة الحواجز بينه وبينها من خلال هذا الإمعان فى لعبة الجدية والصدق والمصارحة؟ أم أنه أصبح دون أن يشعر ضحية التزامه بقواعد اللعبة نفسها لعبة الجدية والصدق والمصارحة التي أصبحت تبعده عنها بعد أن كانت تدنيه منها، وأي نوع من الجنون هو الذى جعله يعتقد أنه لابد وأن يكون قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من السؤال الكبير الذى لابد وأن يكون مفاجأة سلمى عواد الأخيرة إذ سوف تأتى يوما لتقول له:

- أستاذ رءوف يا من تبدو وكأنك تعرف كل الإجابات على كل الأسئلة، هل تعرف أننى أحبك؟ وهل تملك الشجاعة لكى تقول لى أنك تحبنى؟!

مفاجأة سلمى عواد الرابعة

فى هذا الصباح لم يكن وجه سلمى عواد الطفولى يحمل أية أسئلة! الحزن المكتوم الذى كانت تحاول عبثا أن تخفيه هو الذى دفعه هو لأن يبادر بسؤالها، وقد نسى ما طلبها من أجله.

– سلمى ماذا بك؟

– لا شىء.

– غير صحيح أنه لا شىء، لكن إذا كنت لا تريدين الكلام فأنا لا أملك إجبارك عليه!

– أنت تعرف أننى لا أخفى عنك شيئاً، لكن ربما كان الأمر لا يستحق فهى مسألة شخصية.. وقد تتهمنى بالطفولة.

– بالنسبة لك الطفولة ليست تهمة!

– كنت أعرف أنك ستقول ذلك!

– قبل أن أعرف شيئاً عن أسباب حزنك!

– ستقوله بعد أن تعرف!

- تكلمى إذن.

- الأمر يتصل بطارق زوجى.

- خير ماذا حدث؟

- جاءت لهم منذ فترة زميلة جديدة فى العمل، جاءت وحدها، لأن تخصصها هو المطلوب، وتعمل على استقدام زوجها للبحث له عن فرصة عمل، أنت تعرف المشكلات التى يمكن أن تواجه مثل هذه الزميلة، وكان من الطبيعى أن يساعد زوجى فى حل هذه المشكلات ودعوناها أكثر من مرة للبيت، ولكننى بدأت أشعر أن اهتمام زوجى بها وبمشكلاتها يزيد عن الحد، وأن حديثه عنها لا يكاد ينقطع!

- مادام هو الذى يحدثك عن هذا كله، فلا معنى لمخاوفك، لو كانت تعنى له شيئاً شخصيا أو خاصا لما تحدث عنها أمامك بهذه الطريقة.

- الأمر تجاوز حدود الاهتمام الطبيعى فى هذه الأمور، أكاد أشعر أنه يصبح أكثر سعادة وهو يتحدث عنها، ويبالغ فى أناقته وهو ذاهب إلي العمل!

لأول مرة يجد نفسه غير راغب فى التمادى فى الحوار، ويشعر أن هذا الحوار يمكن أن يقوده إلى متاهه قد تكشف من ذات نفسه، وذات نفسها ما لا يحب أن تراه أو أن يراه.

قال لها لأول مرة لهجة بين الجد والسخرية، وقد بدأ يتأمل ويتذكر أشياء كثيرة كأنما فى ضوء جديد.

- لماذا لا تعملين تحقيقاً للمجلة حول موضوع «الغيرة الزوجية».

- كنت أعرف أنك سوف تسخر منى!

قالتها هذه المرة بنبرة حزن حقيقى:

- وهل كنت أسخر منك قبل ذلك؟

خيم عليهما معا صمت ثقيل، وكأنما دخلا دون أن يشعرا فى متاهة لا يعرفان طريق الخروج منها، الشىء الواضح الحقيقى فى قلب هذه المتاهة هو ذلك الحزن الصادق الذى تشف عنه ملامح «سلمى عواد»، الشىء الذى كان فوق الشك فى كل مواقف «سلمى عواد» هذه هو أنها لا تعرف كيف تكذب؟! وإذا كانت تغار حقا على

زوجها إلى هذا الحد فكيف خدعته مشاعره إلى الحد الذى جعله ينتظر أن يكون سؤالها القادم إليه، إلى الرجل الذى يبدو وكأنه يعرف الإجابات على كل الأسئلة هو عن مدى حبه لها؟

قالت له وهى تهم بالخروج، وقد نسيت أن تسأله عن سبب استدعائه لها:

- آسفة لأننى أخذت الكثير من وقتك فى مشاكلى السخيفة!

قال وقد نسى كل شىء عدا رغبته في الخروج من المأزق.

- أثق فى رجاحة عقلك، لا تتسرعى فى الحكم على الظواهر ولا تندفعى وراء مشاعر قد تكون مضللة! شعر بارتياح مضن حين غادرت حجرته، وبدأ يتذكر كلماته الأخيرة لها، وكأنه كان يقولها لنفسه، حتى هذه اللحظة لا يتذكر أنه تورط فى الإفصاح عن مشاعره حيال سلمى عواد، ولكنه لا يجهل قدرة المرأة على الشعور بمن يحبها فى تكتم، وها هو يدرك في الوقت المناسب وهو واقف علي

الحافة أنه كان فى طريقه ليقدم الدليل على صدق الإشاعة التى أطلقها المهندس ممدوح، وأن يجعل من نفسه الأضحوكة التى حاولت مساعدته فوزية أن تنقذه منها، وكيف صدق هو أو صدقت سلمى عواد أنه الرجل الذى يبدو وكأنه يعرف الإجابات على كل الأسئلة!

هل هى حقا سلمى عواد البريئة الساذجة هى التى قدمت له فى الوقت المناسب طوق النجاة؟

وهل سيكون هذا اللقاء بينهما فى هذا الصباح هو بداية النهاية لأسألتها الجميلة التى كان يظن أنهما سوف يطوفان بها فى أرجاء الكون والحياة؟ وللعبة إزالة الحواجز بين رجل وامرأة، أو للصداقة التى يمكن أن تقوم بينهما، لو عرف كل واحد منهما هذه الحدود بوضوح وعرف كيف يلتزم بها؟

واعتصره ألم صامت مضن وهو يشعر بأن المسافة بين الكلمات الكبيرة ومدلولاتها تتسع، والحقيقة بينهما تضيع، والمبادرة تفلت من يده ومن يدها، وهل سيشعر أحد فى المؤسسة أن تغيّرا ما قد طرأ على علاقتهما؟

وهل كان ما يحدث بينهما من لعبة السؤال والجواب مما يمكن أن يلاحظ أحد بالأمس وجوده حتى يلاحظ فى الغد اختفاءه أم أنها الأشباح هى التى تظهر فى وضح النهار للخائفين!

حدود العقل حدود الخوف

سلمى عواد هي التى عادت إليه ذات صباح بوجهها الطفولى المشرق لتقول له:

- بدونك لا أدرى ماذا كنت أفعل؟

- خير إن شاء الله.

- صارحت زوجى بكل وساوسى، فلم يخرج ما قاله لى عما قلته أنت لى!

- ألم تقولى له أنك شكوته لى؟

- هذه المرة لم أقل له شيئاً!

- لماذا؟

- لا أدرى، ربما خجلت من نفسى!

كان ثمة خجل حقيقى يغطى وجهها وهى تتكلم، كاد

أن يقول لها:

– وهل انتهت بالفعل كل وساوسك وأوهامك؟

ولكنه لم يقدر على توجيه السؤال، كأنه كان يخشى أن تظن للحظة أنه لا يصدقها!

هى التى فاجأته بسؤالها:

– أستاذ رءوف هل تعتقد أن الرجل يمكن أن يحب امرأتين فى وقت واحد!

فوجئ بنفسه يقول لها:

– وهل تظنين أنت أن المرأة يمكن أن تحب رجلين فى الوقت نفسه؟

خيم عليهما معا صمت ثقيل كأنه الإجابة الوحيدة الممكنة على سؤاليهما، أدرك من خلال هذا الصمت، أنه كان لأول مرة يهرب من أمامها تحت وقع السؤال المفاجئ، وأنها سلمى عواد كائن لا يمكن لأحد أن يتنبأ بمواقفه أو بما يدور فى عقله، هى التى كسرت ذلك الصمت وهو تقول له وهى تهم بالخروج من مكتبه:

– أرجو أن تغفر لى أننى أتمادى فى أسئلتى، ولكن

هل تعرف كم هو جميل أن يجد الإنسان إنسانا يشعر أنه يمكن أن يقول له كل ما يدور فى عقله دون حرج أو خوف، وبغض النظر عما يمكن أن يظفر به من جواب؟!!

قال لها وهو يتأمل فى عينيها تلك النظرة التى تنبض بالصدق:

– ما أشعر به من صدقك، هو الذى يضمن لك وجود هذا الإنسان دائما؟

ربما فى هذا اللقاء، شعر على نحو غامض، بأنها سلمى عواد هى التى تحدد إطار علاقته بها، وأنه لا أحد غيرها يمكن أن يكسر هذا الإطار؟ لكن هل يمكن حقا أن يحلم بشىء أكثر؟

سلمى عواد هى التى ترجوه أن يسمح لها بأن تقدم له روحا عارية، فهل كان فى جزء من عقله يحلم بأن تقدم له جسدا عاريا؟ وكيف يعرف إنسان ماذا يدور حقا فى خفايا عقله؟

ما أقصر المسافة التى كانت تبعده عن الجسد العارى لو كان هو حقا ما يحلم به، يقول كلمة فيفقده أو يناله إلى

الأبد، وما أطول الزمن والمسافة اللذان يحتاج إليهما ليبدأ الرحلة لاكتشاف حدود روح عارية، تتسع حدودها كلما ضاقت حدود الخوف!.

وهل كان الحب الذى يحلم به فى كل حياته يعده فى النهاية بشىء أعظم مما تعد به سلمى عواد؟ وهل تصبح أسئلة سلمى عواد لا تحتمل سوى معنى واحد هو المعنى الذى تسأل عنه لا غير! أم تبقى سلمى عواد مثل بعض الصادقين الذين قال عنهم: إنهم لا يعرفون المعنى الخفى لصدقهم!.

لعله لم يجد معنى قاطعا لإجابة مثل هذه الأسئلة! ولكنه عرف شيئاً واحداً، منذ ذلك اللقاء فى هذا الصباح واستراح له، عرف أنه أسلم عصمته لسلمى عواد ذلك الطائر الذى لا يقر له قرار، تركها تفعل به ما تريد تسأل بحرية، يجيب على أسئلتها حينا بالصدق الذى يملكه، وأحيانا بالحيرة التى يحسها، ودائما يطلب منها ومن نفسه أن يهيما على وجهيهما فى كل الأرجاء بحثا عن إجابة للأسئلة التى لا يعرفان لها جوابا!.

وأصبحت هذه الأسئلة التى تبدأ منها أو منه تدور فى أرجاء الزمان والمكان، فى شوارع المدينة، وفى مدن العالم، تنبع من بطون الكتب، أو من عناوين الصحف أو من أخبار الإذاعات المسموعة والمرئية، أو من لحظات الصمت العميق والحزن الخفى الغامض أو الفرح المجنون، ولكنها فى كل الأحوال كانت تضمن له أروع الأشياء جميعا، هو أن سلمى عواد قد ارتبطت به على نحو لا ينفصم، وهى تسأل، وهى تغضب وهى تفرح وهى تبكى، تتسع المسافات بينهما أو تقترب ولكن سلمى عواد هى قريبة أو بعيدة قد أصبحت جزءا من نظام كونه، من نسيج حياته، فجأة اختل نظام الكون فى المدينة الّتي جمعت بينهما حدث شىء لم يكن أحد يتوقعه، لعله كان زلزالاً كبيراً، لعلها كانت حربا كونية أو حربا شارك فيها كل العالم، كان لابد أن يكون حدثا كونيا كبيراً بحجم قوة الجاذبية التى تربط كُلاً منهما بالآخر لكى يبعد كلاهما عن الآخر.

عاد إلى بلده، عادت إلى بلدها، كانت ظروف العودة

بالغة القسوة لم تسمح لأى منهما بوداع لائق، بكلمات صغيرة أو كبيرة تصف ما كان تتحدث عما سيكون!.

بقدر ما شعرا بأنهما عاجزين أمام الحدث البشع الكبير ازداد تشبثهما بما كان بينهما من سؤال وجواب، فى شكل رسائل يحملها البريد أو مكالمات تحملها موجات الأثير، ظل الحدث البشع الكبير لفترة طويلة هو محل السؤال والجواب، زارته مرات فى بلده مع زوجها وأولادها لم يتمكن من رد الزيارة، كان يقول لها ممازحا:

ألا ترين أننى أصبحت رجلا عجوزا؟

كانت تقول له ممازحة:

- لم أشعر يوما بأنك رجل عجوز!

لم يكن ما يخيفه هو بعد الشقة، بل مرور الزمن، فهو يحمل كلا منهما فى آتجاه مختلف، ولكن سلمى عواد كانت لا تزال قادرة على أن تجعله دائما فى انتظار ما لا يتوقع!!

★★★

التليفون يدق، ولكن فى كل مرة يتكلم أشخاص يبدون

له، وكأنهم يتكلمون من خارج الزمان والمكان، فزمانه ومكانه فى انتظار صوت سلمى عواد الذى يعرفه ويألفه!.

فى هذه المرة جاءه صوتها وكأنها تتكلم بجواره:

- أستاذ رءوف.. كيف حالك؟

- سلمى.. من أين تتكلمين؟

- من ليماسول.. بجواركم هل تصدق؟

- مشكلتى معك.. أننى كنت دائما أصدق!

يسمع الضحكة الرقيقة المكتومة التى تجيئ من أعماق الحلق ثم يواصل:

- ماذا تفعلين في ليماسول؟

- جئت ضمن وفد من بلدنا يشارك فى مؤتمر علمى فى ليماسول!

- إذن لابد أن تمرى على القاهرة فى طريق عودتك!

- بكل أسف لا أستطيع فأنا وحدى ومرتبطة بالوفد فى الذهاب والعودة!

- هذا مؤسف.. كنت أظن أن هناك فرصة لرؤيتك!

عادت الضحكة المكتومة:

– ستكون هناك فرصة لو جئت أنت إلى ليماسول ولو ليوم واحد فهل تسمح ظروفك!

– لابد أن تسمح، لابد أن أجعلها تسمح، لكن كيف سيكون وقتك وأنت مرتبطة بوفد وبمؤتمر!

– في نهاية الأسبوع سيقوم الوفد بجولة سياحية ليومين فى أنحاء الجزيرة، ويمكن أن أعتذر عن المشاركة فيها!.

– سأفعل المستحيل لكى أحضر لكن أين تقيمين؟

– أنا تكلمت عندما لاحت لى هذه الإمكانية لأعرف شيئاً عن ظروفك، لكن لابد أن تنتظر مكالمة أخرى منى حتى أتأكد من أن البرنامج يمضى كما هو دون تغيير لأحدد لك كيف نلتقى؟

– فى انتظار مكالمتك إذن!!

كان وهى تتكلم يشعر ببوادر زلزال أو حرب كونية أخرى كتلك التى فرقت بينهما، توشك أن تحدث لتعيدهما هذه المرة إلى تلك اللحظات التى كانت تجمعهما قبل الشتات!

ولكن هل حقا سيعودان فى ليماسول، تلك المدينة التي سيكونان فيها وحدهما لأول مرة إلى تلك اللحظات التى كانت تجمعهما قبل الشتات، إلى ذلك الإطار القديم الذى حددته هى لعلاقتهما؟!

انتهت المكالمة، ولكن الزلزال لم ينته، هل كانت تدرك سلمى عواد وهى تتكلم أنها كانت تحطم ذلك الإطار الذى صنعته هى له، الإطار الذى وجد فيه قناعته بسعادة توشك أن تكون أبدية؟ أم أنها لم تفكر فى شىء سوى مجرد الرغبة فى أن تلقاه؟ ومن ذا الذى يعرف ما يمكن أن تفكر به سلمى عواد؟

لم يبق أمامه سوى أن ينتظر، التليفون يدق ويتكلم هؤلاء الأشخاص الذين يأتون من خارج الزمان والمكان!!

ويمضى يوم ويومان وثلاثة، وسلمى عواد لا تتكلم..!

لابد أن شيئاً ما قد حدث، شيئا منعها حتى عن الاعتذار.. هل ستكون هذه حقا هى مفاجأة سلمى عواد الأخيرة! أم أن عليه أن ينتظر واثقا من أن مفاجآت سلمى عواد لا تنتهى!

وفى لحظات انتظاره تلك كان يدرك لأول مرة قسوة أن يكون الإنسان خارج أى إطار، وللإفلات من هذه القسوة كان يتصور أحيانا أن هذا الاتصال التليفونى الأخير كان بعض أوهامه، وكانت تمضى به الرغبة فى معاقبة سلمى عواد فيتصور أنها كلها كانت بعض هذه الأوهام!

والدعوة عامة..

معذرة يا دكتور إذا كنت قد فاجأتك بهذه الزيارة فى مثل هذا الوقت، قدماى حملانى إليك فحين يواجه المرء موقفا يشل قدرته على التفكير، يتولى جسده الأمر كله، وجدتنى أمشى على غير هدى هكذا كنت أظن، حتى وقفت أمام عيادتك فأدركت أننى كنت أبحث عنك!

★

لا تقلق يا دكتور، سوف أحدثك عن كل شىء، وإن كنت لا أدرى من أين أبدأ؟ أتذكر آخر مرة زرتك فيها؟؟ لازلت أذكر كلماتك مع أنه قد مر على ذلك سنوات طويلة.. يومها قلت لى:

– زوجتك الآن فى أحسن حالاتها، والباقى فى يدك أنت، أنت الأرجح عقلا وبصيرة، ما أطلبه منك يفوق ما أطلبه منها، وإذا كنت تريد حقا أن تنقذ مشروعك فلابد أن تدفع الثمن عن طيب خاطر، لابد أن تحرمها من كل

فرص الشجار أو المرض ولا مانع من أن تقبل أحيانا بما لا تقتنع به من سلوكها حتى توفر لنفسك أثمن ما تحتاجه الآن، الهدوء والوقت، وحين تنجح فى تحقيق إنجازك، فقد تكون زوجتك أول من يتأثر بذلك بشكل إيجابى، وقد يؤدى اعتراف الآخرين بعملك إلى اعترافها هى أيضاً بما تحتاجه من هدوء وسلام فتمنحه لك عن طيب خاطر!!.

كأنك كنت تقرأ المستقبل فى كتاب مفتوح يا دكتور! لقد حدث الكثير جدا مما توقعت، لكن هل كان فى قدرتك أن تتوقع النهاية التى تطورت إليها الأمور؟ والتى حملتنى إليك فى هذه الزيارة المفاجئة!!

★

أعرف يا دكتور أننى تأخرت كثيرا هذه المرة فى اللجوء إليك، لكن ربما كان عذرى أننى تأخرت كثيرا فى اكتشاف ما يجرى من حولى، كنت أتصور أن كل شىء يسير فى طريقه الصحيح وكنت أدخر زيارتى لك لتكون تتويجا لما كنت أظنه نجاحى ونجاح زوجتى معا، فقد كان كلانا فيما أرى يسعى بخطى حثيثة وواثقة نحو نجاحه..

لكن دعنى أرجع قليلا إلى الوراء لأبدأ من البداية.

أشكرك يا دكتور على هذه القهوة، التى كنت فى أمس الحاجة إليها، البداية أنت تعرفها يا دكتور!.

لن أحدثك كثيرا عن مشروعى الفكرى، فأنت تذكر بلا شك تلك الحوارات الطويلة التى كانت تدور بيننا عن إمكانية تحقيق العدالة دون التضحية بأجزاء ثمينة من الحرية.

نسيت فى خروجى الذاهل علبة سجائرى، لا بأس فكلانا يدخن نفس النوع، كنا نتفق فى أشياء كثيرة وكنا نختلف أيضاً! حتى بالنسبة لمشروعى!

كنت أقول لك دائما: إن التناقض بين العدالة والحرية ليس أزليا إلا بقدر جهلنا بقدرات الإنسان وحاجاته وجهلنا أكثر بهذه العلاقة المراوغة بين القدرة والحاجة.

أشعر أننى أعود الآن معك إلى هذه الأيام الخوالى كنا نتفق فى سخريتنا من المقولة الشهيرة »من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته«، إذ من ذا الذى يحدد القدرة والحاجة، دون أن يقتل الحرية، ومهما يكن حسن النية أو

التقدير!!

ولكنا كنا نختلف فيما بعد ذلك، فقد كنت أنت ترضى بقدر من العدالة وقدر من الحرية فى حدود ما نعرف عن قدرة الإنسان وعن حاجاته! وهى الحدود التى يشير إليها عمل كل فرد، وتتيحها إمكانات كل المجتمع.

بينما كنت أقول لك: إن العدالة الحقيقة سوف تكون فى متناول اليد لو أمكننا وضع تلك الاختبارات التى تكون نتائجها فى قياس قدرات الإنسان من الدقة بحيث لا يشعر من يخضع لها بأننا نتدخل فى حريته حين نحدد له مدى قدرته!؟.

وقتها كنت تقول لى ساخرا: قد تصبح الرغبة فى تحقيق الكمال حين تعوقنا عن العمل المتواضع والبسيط أشد أقنعة الهروب خبثا ثم تضيف مخففا من سخريتك: وعلى كل حال لن أثبط من همتك فقد تنجح فى تحسين بعض الاختبارات الموجودة بالفعل وهذه خطوة جيدة، وإن كنت سأبقى على قناعتى بأن فى شخصية الإنسان قدرات لا يمكن قياسها بمثل هذه الاختبارات التي أخشى

أن تضيع حياتك فى الجرى وراءها..!

أكنت تشعر وقتها يا دكتور بما يمكن أن تتطور إليه الأمور أم أنها كانت مجرد مخاوف؟؟ وفى الحقيقة بمقدورى الآن أن أعترف لك بأن سخريتك من طموحى كانت من أهم الأسباب فى وصولى إليك متأخرا هذه المرة!

كنت أريد أن أتحدى زوجتى وأتحدى سخريتك معا ولم تكن المشكلة فى تقديرى هى الشك فى قيمة الاختبارات بمقدار ما هى فى وجود الفرصة للبدء فى مثل هذا المشروع الذى يحتاج ما لا أملك من الفراغ والمال!

★

تقول أن لديك موعدا هاما فى الساعة الخامسة؟! أنا أيضاً لدى موعد مصيرى فى نفس الوقت، يا لها من مصادفة، أعتقد أنه لايزال أمامنا من الوقت ما يكفى لنفكر معا فيما ينبغى بالنسة إلى موعدى المصيرى والذى جاء بى إليك فى مثل هذا الوقت سوف أكف عن كل

المقدمات.. فالبداية الحقيقة حدثت يوم عرفت الدكتور ناجى السلامونى.. يومها كنت.. ماذا حدث يا دكتور؟؟ هل قلت شيئاً غير عادى؟

- .....

- تغيرت ملامحك حين نطقت باسم الرجل.

- .....

- أردت فقط أن أدخل فى الموضوع مباشرة، والرجل معروف لكل الناس، فهو رجل الأعمال الشهير وحين زارنى فى مكتبى بالوزارة لإنجاز بعض معاملاته كان لطيفا إلى الحد الذى وجدت نفسى فيه دون أن أدرى أحدثه عن مشروعى الخاص بالاختبارات.. أدهشنى اهتمامه بمثل هذا الموضوع وحسن استماعه إلى الحد الذى ظننت فيه أنه نسى موضوعه الذى جاء من أجله فرجوته أن يأذن لى بدقائق لإنجاز موضوعه قال لى وهو يتسلم أوراقه:

- سوف أعقد معك صفقة محددة ثم أوضح بلهجة عملية:

لا تهمنى دوافعك للمشروع ولا ما تسعى إليه كل ما يعنينى هو اختيار الموظفين الأكفاء لشركاتى دائما كنت اعتمد على التجربة للحكم على كفاءتهم ثم منحهم الثقة والمسئولية، وطبعا لهذه الطريقة ثمنها الباهظ من الوقت والنقود، ومن بين العشرات قد أجد شخصا واحدا مناسبا، ولو أمكنك أن تضع لى اختبارات تجعلنى نتائجها أثق بمشروعك، فسوف توفر لى الكثير من وقت التجربة وتكاليفها، وآنذاك سوف أمنحك تفرغا كاملا لمواصلة بحوثك فى هذا المجال سآخذ منك فقط ما يلائم حاجتى، وسأتركك لآخر عمرك تبحث عن حل سعيد لما تسميه مشكلة العدالة والحرية على مستوى الدولة أو على مستوى الإنسانية أما أنا فلا يهمنى سوى شركاتى، وحتى أكون واضحا معك من البداية فلن أنقلك إلى العمل معى إلا بعد أن أجرب بعض اختباراتك!!

هل تريد أن تقول شيئاً يا دكتور؟

-.....

- أعتقد أن حديثى عن الدكتور ناجى السلامونى

سوف يجيب على كل تساؤلاتك..! لم أتردد في ترك عملى بالحكومة حين أخبرنى بأن نتائج الاختبارات التى استخدمها جيدة ودقيقة، وحين قدم عرضا لم أكن أحلم به، لم يكن ما جذبنى إلى العمل معه مجرد إغراء الفرصة أو النقود بل كان شيئاً غامضا فى شخصية الدكتور ناجى نفسه، أحسست به منذ أول لقاء معه، وبدأ هذا الشىء ينمو ويتبلور بعد العمل معه.. كنت أفكر منذ الأيام الأولى من العمل معه فى هذا السؤال: هل يمكن أن ينجح أى اختبار أضعه فى قياس قدرات الدكتور ناجى الفائقة وبخاصة قدرته على الإقناع والنفاذ فى الناس بل ومقاومتهم حين يحتاج الأمر إلى المقاومة؟؟ ثم غرقتُ فى العمل، وحين كنت أحتاج إلى السفر أو عمل بعض الدراسات الميدانية كنت أجد كل شىء تحت يدى، التذاكر والحجز فى الفنادق والطباعين والأوراق والكتب، أصبحت لدى مكتبة كاملة وسكرتارية وحريتى ووقتى ورجال الدكتور فى كل مكان، كأنه دولة صغيرة محكمة كل شىء فيها مختار بعناية، أما زوجتى فقد انتهت مشكلاتى معها

تماماً، كنت غارقاً في عملى.

وكانت هى غارقة فى تأثيث شقتنا الجديدة، ثم إقامة الحفلات التي كان يحضرها الدكتور ناجى أحيانا، وحين كنت أراها فى هذه الحفلات وهى تستقبل الزوار وتحادثهم بلباقة وذكاء فى كل الموضوعات، لم أكن أصدق أن هذه هى زوجتى حقا التى كنت تقول عنها أنها الأقل ذكاء وحكمة!! كيف لم أبصر فيها من قبل كل هذه الجاذبية التى تنطق بها عيون من حولها؟ والتى طالما حملتها مسئولية عجزى عن إنجاز مشروعى لم أكن أستطيع أن أمنع نفسى مع شعورى بالدهشة من الشعور بالزهو لأن هذه السيدة الجميلة الذكية هى زوجتى، لعلنى قدمت الآن الإجابة على سؤال لم تسأله أنت مع أنه ربما يدور فى خاطرك: كيف نسيت أنا أو زوجتى أن نوجه لك الدعوة مرة واحدة مع أنك صديقنا القديم، ربما كنت أشاركها الشعور بأنها لا تحب أن ترى شخصا يذكرها بلحظات ضعفها، وبأنها كانت يوما الأقل ذكاء وحكمة، الذى كان يبدو أنه يعرف قيمة زوجتى حقا هو الدكتور

ناجى السلامونى، لم يكن يتردد فى أن يقول لها أمامى وأمام كل المدعوين:

– حقا وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة وفاتنة لم أكن أهتم كثيراً بمثل هذه المجاملات، فقد كنت أشعر أن الرجل يغازل الدنيا كلها، وأنه لا يمكن لأى امرأة أن تكون محور اهتمامه الحقيقى!.

ولكن هل كانت زوجتى تفهم الدكتور كما أفهمه أو لعلك أنت تقول الآن فى نفسك وهل كنت أنت تفهمه؟ على كل حال أنا هنا الآن لأعترف لك بما كان وبما يكون لنواجه معا ما سيكون، ولست أريد أن ألقى عليك ألغازا.. المسألة أن مثل هذه المواقف لم تدفعني يوما إلى أن أهتم بملاحظة علاقة زوجتى بالدكتور ناجى أو حتى بغيره كنت سعيدا بانطلاقتى فى عملى، وبانطلاقها إلى دنيا لا وقت فيها للشجار أو المرض!!

★

مع أننى لم أكن أعمل فى فراغ فإن الطريقة التى يستفيد بها الدكتور ناجى من مشروعى كانت أحيانا

تحيرنى، فالرجل لم يكن يعتد بكل نتائج اختباراتى، وأحيانا كا يعين أشخاصا يفشلون فى حل هذه الاختبارات، ولكنه لم يهمل يوما هذه الاختبارات كلية، ولم يتدخل يوما فى شئونى، كانت بينى وبين الرجل منذ البداية شروط واضحة محددة، فلماذا أختلق مسائل للخلاف معه.

كانت عنايته بالمشروع تبدو واضحة حين يستخدم شبكة علاقاته المذهلة فى توفير كل ما يلزم، ولتذليل أى عقبة فى طريق المشروع، وحين كان يتحدث إلى خاصة أصدقائه وزواره أمامى عن المشروع كان يتحدث باعتباره واحدا من أخطر إنجازات مؤسسته وبما يوحى بأن هناك فريقا من المتخصصين يعمل تحت إشرافه المباشر، وأن هذه القضية، قضية قياس القدرات كانت إحدى همومه الفكرية المبكرة، ومرة أخرى كنت ابتلع هذه المواقف متصورا أنها مجرد جزء من ميوله الاستعراضية، ومن رغبته فى إضفاء الأهمية القصوى على كل عمل يقوم به، أكان من الممكن أن أتوقف أمام هذه الظواهر وأعرض

مشروعى كله للتوقف؟؟

كنت قد حققت التقدم فى قياس القدرات العقلية، وكنت أتمنى أن أنقل محاولاتى إلى مجال القياس النفسى، في محاولة لتفهم الكائن البشرى فى شتى جوانبه فقد كنت أدرك أن القدرات العقلية لا تعمل فى الفراغ، وأنها تتأثر كثيرا بمنظومة الحاجات النفسية وأن النجاح فى تحديد عمل القدرات العقلية مرهون بالتعرف على طبيعة العلاقة المراوغة بين هذه القدرات العقلية وتلك الحاجات النفسية، فهل أترك هذا الهدف الكبير من أجل تفهم أهداف الدكتور ناجى السلامونى من مثل هذه الممارسات التي قد تكون مجرد أعراض لتضخم ذاتيته!.

★

لا أريد منك تعليقا الآن يا دكتور، وليس هذا هو الوقت المناسب للحديث عما قمت به فى مجال قياس الحاجات النفسية فالدكتور ناجى لم يكن يترك لى فرصة العمل فى هدوء طول الوقت فقد كانت قدرته على إثارة القلق لا تقل لحظة عن قدرته على إثارة الإعجاب، ما تنشره الصحف

عنه هو لا شيء بجانب حقيقته، أحيانا كان يقربنى منه جدا يصطحبنى فى رحلاته وزياراته لمواقع العمل ولا أكتمك أننى تمنيت يوما أن أؤلف كتابا عنه عن شخصيته الفذة، أقصد عن شخصياته المثيرة للإعجاب والقلق، حين كان يتحدث مع العمال كنت لا تفرق بينه وبينهم، يتحدث بلغتهم، يرتدى مثل ثيابهم، يروى الحكايات والنكات التى يتبادلونها فى جلساتهم الخاصة، ويستشهد بأمثال جدته ونوادرها، وإذا جاء وقت الصلاة وهو معهم تقدمهم للصلاة!.

أما مع كبار المسئولين فى مؤسسته فقد كان يبدو أحيانا وكأنه أكثر إلماما بالأمور التى تخصص فيها كل احد منهم طوال عمره، يشير إلي المراجع والكتب والصحف التي لا تعرف متى يجد الوقت لقراءتها كأن يعمل أمين مكتبة لا غير، له قدرة مذهلة على التذكر واستدعاء الوقائع، طلب يوما مذكرة من أحد كبار مسئوليه وحين طال بحثه عنها شرح له بالتليفون مكانها الذي رآه وهو يضعها فيه حين كان معه بالحجرة أثناء

مناقشته لتلك المذكرة.. فعل ذلك وهو يضحك! ورغبته فى استعراض قدرته أقوى من رغبته فى تأنيب معاونيه.

أما حفلات «الكوكتيل» التى يقيمها للخبراء الأجانب ولرجال الأعمال ولخاصة أصدقائه من كبار رجال الدولة فقد كان يبدو وكأنه أحد نجوم السينما أو الدبلوماسيين الذين يمكنهم أن يتحدثوا فى كل شىء دون أن تنقصهم الجاذبية أو المعرفة المناسبة!.

هذه الشخصيات المتعددة تصبح في الموقف الواحد شخصية واحدة تختفى كلها كأنما بإشارة ساحرة وتصبح عونا للشخصية الراهنة التى يحتاجها الموقف ودون أن تكون عبئا عليها يحدث ذلك دائما بلا أدنى قلق أو تردد!!

لقد كنت شديد الافتتان بهذه الشخصية ولكننى لم أكن أبدا مستريحا لها، كان فيها شىء غامض يثير قلقى ومخاوفى مثلما تثير إعجابى، وكنت أشعر أن هذا الشىء يثير شكوكى فى معنى نجاح مؤسسته الكبيرة، ولقد كنت أتمنى لو كانت لدى الفرصة لأبحث أكثر عن هذا الشىء

فى نفوس العاملين معه القدامى والجدد؟!

وأفصح هذا الشىء أكثر عن بعض ملامحه فى ذلك اليوم الذى كنت فيه أغادر مكتبه - بعد أن قدمت مذكرة ببعض متطلبات المشروع وافق عليها بعد نظرة خاطفة - لحقتنى ضحكته الساخرة المفاجئة قبيل الباب التفت نحوه قال لى بلهجة بين الجد والسخرية:

- اختبارك الأخير يا أستاذ عن القيادة الديمقراطية؟!

وتحول وجهى كله إلى علامة استفهام فأردف.

- لم أحصل فيه علي درجة النجاح.

ثم تابع وهو يضحك وقبل أن أرد بأى كلمة:

- أعدك بأن أحاول تحسين أدائى ثم انصرف إلى أوراقه بطريقة جعلتنى أنصرف إلى خارج الحجرة بلا تعليق!!

أظنك تفهمنى يا دكتور فلم يكن قلقى بشأن العمل أو بإمكانية استغناء الدكتور ناجى عن مشروعى كله، بل كان قلقى ينبع من سؤال بدأ يلح علىّ: ما الدور الحقيقى للقدرات التى أبحث عنها وأسعى إلى تحديد حجمها فى

ضـوء هذه القـدرات الأخـرى التى تكشف عن تأثيـرها المذهل شخصية مثل الدكتور ناجى؟؟ هل أنا مجرد طفل يلهو بما يعمل؟ وما معنى حرص الدكتور ناجى على أن يلحق بمؤسسته روضة للأطفال من أمثالى وهل تصالحت العدالة والحرية صلحا مشرفا فى دولة الدكتور ناجى بعد جهودى المظفرة؟؟

لم يطل انتظارى يا دكـتـور للبـحث عن أجـوبة لتساؤلاتى، ولعلنى أيضاً لم أجد أجوبة شافية لها..!

ذات يوم دعانى لمكتبه، كانت ملامح وجهه هادئة ناعمة كأنه استيقظ لتوه من النوم!

بدأ يحدثنى عن الاختبارات بلهجة مشبعة بالرضا والثقة..! لم يكن هناك أحد سوانا، ويبدو أنه طلب إلى مدير مكتبه ألا يدخل أحدا لبعض الوقت فمن النادر أن يخلو مكتبه لمثل هذه المدة ثم قال بنفس النبرة الهادئة الواثقة: أعتقد أنه قد حان الوقت لنخرج كتابا يضم نماذج من هذه الاختبارات مع مقدمة تشرح فكرتها وفلسفتها.. ثم أضاف دون أن ينتظر منى ردا:

– سوف يكون هذا الكتاب هو الأول فى سلسلة تحمل شعار المؤسسة، وتحمل أفكارها فى مختلف مجالات نشاطاتها، وتؤكد للرأى العام أننا نختار العاملين عندنا على أسس موضوعية ثم التفت إلىَّ قائلا بلهجة اعترافية:

– يظل الإنسان يعمل بلا هوادة وفجأة يكتشف أن الزمن يمضى، ويترك آثاره على كل شىء، لقد عانيت كثيرا، ولكنى أصارحك أنت بأن عملا لم يأخذ من فكرى واهتمامى مثلما أخذ هذا المشروع!

ثم تابع وعيناه الصافيتان الهادئتان تحدقان فىَّ دون أن يطرف لها جفن:

– قليلة هى الأشياء التي يمكن للمرء أن يعتز بإنجازها ولكن قضية الاختبارات ستبقى واحدة من أعظم ما أعتز بإنجازه!!

ثم أردف بنبرة ختامية ودون أن يرفع عينيه عن عينى:

– أما جهودك المستمرة فى خدمة هذا المشروع والاستمرار فى تطويره فستبقى دائما موضوع تقديرى الخاص!

مع كلماته كان قلبى يواصل سقوطه بين ضلوعى، مرة أخرى أود أن تفهمني جيدا يا دكتور لم أكن مأخوذا بادعائه، بقدر ما كنت مأخوذا بالطريقة التي يمارس هذا الإدعاء، بعينيه الصافيتين المليئتين بالهدوء والثقة، كأننى واحد من زواره.. يتحدث إليه عن المشروع!! شخصياته العديدة تذوب وتتوحد في هذه الشخصية الاعترافية الواحدة، التي تبوح بسرها أمامى فيما يشبه الهمس والنجوى..!

شخصية الرجل الذى أفنى كل عمره فى قضية الاختبارات ويبحث عمن يجد عنده روعةِ التصديق والمشاركة فلم يجد غيرى، كنت مبهورا بروعة أدائه، كان قد بلغ قمة لا يتطلع إليها أحد حتى فى الخيال، والغريب أننى لم أفكر لحظة أبدا فى تكذيبه أو الثورة فى وجهه، كنت أتأمل فى تلك القدرة المذهلة التي هى من أخطر أسرار نجاحه، القدرة على أن يصدق أكاذيبه من فرط القوة أو من فرط الضعف!! ووجدتنى أتساءل بينى وبين نفسى: هذه القدرة التى تسوق أمامها كل القدرات

الأخرى وتسخرها أين كانت على خريطة بحثى وتجريبى؟

كان السباق بيننا فى هذه اللحظة غير متكافئ، هو شخصية واحدة متلاحمة لها القدرة على أن تقفز فى الهواء فلا تتحطم وأنا شخصية مبعثرة على الأرض تتحاور أجزاؤها دون أن تقدر على الحركة..!

حين دق جرس التليفون فى مكتبه فى تلك اللحظة، لم أكن أدرى وأنا أغادر الحجرة، هل أنقذه من يدى أم أنقذ نفسى من الموقف؟!

★

بدأت الأحداث تجرى بأسرع من قدرتى على ملاحقتها قبل أن أقرر ماذا ينبغى أن أفعل لمواجهة الموقف كانت الإعلانات عن الكتاب قد برزت في الصحف ويبدو أنه حين تحدث معى كان الكتاب قد تمت طباعته ولعله أراد أن يخفف من المفاجأة، وفى الوقت الذي قررت فيه لأول مرة أن آخذ رأى زوجتى فى المشكلة فوجئت بالكتاب فى يدها، وقبل أن أحصل على نسخة منه.

قلت لها وأنا أدارى إحساسى بالمفاجأة:

– ما رأيك؟

– رائع.. تأمل تصميم الغلاف.. من كان يتصور أن يتحقق إنجازنا بهذه الصورة؟!

– إنجاز من؟ لقد أصبح إنجاز الدكتور ناجى!

– منذ متى أصبحت تفكر فى الشكليات؟ إن وجود اسم الدكتور ناجى على الكتاب مثل وجود شعار المؤسسة! إنه مجرد رمز ولكن الجميع يعرفون دورك وهو أولهم! ولا تنسى أنه بدونه ما تحقق شىء من ذلك كله.

– وبدونى ما كان بمقدوره أن يفعل شيئاً، هل جننت؟

– الجنون هو أن نحطم كل شىء من أجل مسألة يمكن أن تحل بالحكمة..!

– تلك هى الحكمة التى تعلمتها إذن؟!

– دائما كنت تطالبنى بالنظر فى جوهر الأمور.. ثم تابعت بلهجة حاولت أن تكون هادئة وحانية.

– الدكتور تهمه الدعاية للمشروع ولمؤسسته أما أنت فلا يزال أمامك الكثير لتفعله، فكر جيدا فيما كنا فيه وما صرنا إليه، فى جدوى دخولك فى معركة وهمية مع

الدكتور ناجى من أجل لا شىء بينما قد تخسر مشروعك؟!

– لم أعد قادرا على التفكير ولا راغبا فيه!! أنت لا تعرفين حتى ما أنا قلق بسببه!

– وأنت أيضاً هناك أمور يجب أن تعرفها قبل أن تتسرع بقرار غير مدروس، كنت دائما مستغرقا فى عملك، ولم أحب أن أشغلك بمسائل كنت دائما لا تعطيها الأهمية التي تستحق، كانت أرباحنا كثيرة من العمل، وقد شجعنى الدكتور ناجى على أن أساهم بمدخراتنا فى بعض شركاته، نعم هذا ما كنت انتظر الفرصة لأفاجئك به، وقد أصبحنا..

قلت لها وأنا جالس على أقرب مقعد:

– كفى يا سيدتى فالمفاجآت أصبحت أكثر من احتمالى!

★

لا تنظر فى ساعتك، أعرف أن الوقت قد حان، وقتك ووقتى، ألم أقل لك يا دكتور أن الأحداث تجرى بأسرع

من قدرتى على التفكير..!

لم أكن قد اتخذت قرار بعد، حين وصلتني هذه الدعوة ليكى أحضر الحفل الكبير الذى يقام على شرف المشروع فى فندق شيراتون، وسيكون الدكتور ناجى ومعه زوجتى فى استقبال المدعوين، لقد قررت هى أن تذهب نيابة عنى بعد أن اعتذرت بظروفى الصحية..!

زوجتى أصبحت هى التى تتخذ القرارات الهامة، والدكتور ناجى ليس فى حاجة إلى أن أطلقها أو يتزوجها لتقف على يساره في الحفل الكبير..!

تقول أن القرار الأخير لا يزال فى يدى.. وأنك أيضاً مدعو إلى نفس الحفل.

وأن كبار رجال الدولة سيكونون هناك لأن هذه هى دولة الدكتور ناجى السلامونى!!

وأن المساعدة الوحيدة الممكنة التى يمكن أن يقدمها لى أى صديق مخلص هو أن يكف عن مساعدتى وأن كل هذا الذى يجرى هو أول اختبار يقدمه لى الدكتور ناجى الذى ضحك حين فشل فى اختبارى وأن المهم هو من

يضحك أخيرا، وأن هذه مبارزة عادلة بمفهومى للعدالة وأننى لست فى حاجة إلى إلى شاهد عادل ومحايد وأنك ستكون هذا الشاهد! إذن ماذا ننتظر يا صديقى؟

خاتمة:

تنتظر هذه القصة من يكتب خاتمتها فالراوى ذهب مع صديقه الدكتور إلى الحفل.. ومع أن الراوى لم ينتبه إلى أن الدعوة كانت عامة وأنه سيشهدها خلق كثير فإن أحدا لم يقل ماذا حدث فيها وإن كان هناك من يؤكد أن الحفل سيبقى ساهرا حتى الصباح.. أى صباح!!

أكتوبر سنة ١٩٨١

حالة غير مستعجلة

أشعر يا دكتور أننى تحسنت كثيرا على يديك.. وأن العلاقة بيننا تحسنت كثيرا كذلك.. هل كنت تتصور بعد هذه الغيبة أن أعود إليك.. بنفسى؟

كنت تنتزع منى الكلمات، أما الآن فكما ترى لا أكاد أترك لك فرصة للكلام.

أعتقد أنك الآن تفهم لماذا لم أكن أثق بك؟ كنت قاسيا وعنيفا.. ألا زلت تذكر أول زيارة لك؟

كان من الواضح أنك تبنَّيْتَ وجهة نظر زوجى فى كل شىء، لا يا دكتور لقد كنت مَلكياً أكثر من الملك.

لقد جئنا إليك لتحل مشكلاتنا، وإذا بك تقترح علينا – فى أول لقاء – الطلاق كحل لهذه المشكلات، كانت تلك قسوة بالغة منك وشريرة. وأعترف لك الآن أننى بينى وبين نفسى كنت أتهمك بالجهل أو سوء النية ولم أكن أعرف كيف جعلوا منك طبيبا؟

لقد كنت ولا أزال أحب زوجى، وهو يحبنى، لو كان لا يحبنى لطلقنى، ولما جئنا إليك.. أنت لست مأذونا يا دكتور. أنت طبيب ولهذا جئنا إليك لتنقذ حبنا لا لتقتله..

كانت بيننا مشكلات وهذا أمر طبيعى فى كل علاقة زوجية وكان المطلوب منك أن تساعدنا فى حلها لا أن تقطع هذه العلاقة.. ومع ذلك فأنا الآن أعتقد أنك كنت معذورا يا دكتور فى رأيك هذا، أنا التى اخطأت ودفعتك إلى هذا الرأى.. كان خطأ منى بلاشك أن أرفض الحديث معك.. وأن أترك زوجى وحده يتكلم، وهو كما تعلم يجيد الحديث، أوضح وجهة نظره كاملة فى كل شىء بينما لزمت أنا الصمت، عدا كلمات قليلة كنت تنتزعها منى انتزاعاً.. وكانت كلها تعبيراً عن الاحتجاج والثورة وليس عن وجهة نظرى فيما بيننا.

فى الحقيقة يا دكتور أننى كنت أرفض بشدة فكرة أن نذهب إلى طبيب نفسى.. أعتقد أنك تفهمنى الآن يا دكتور.

لم أكن مجنونة أو مريضة مرضا نفسيا.

أى إنســان لا يرفض أن يذهب إلى أى طبــيب، لكن الذهاب إلى طبيب نفسى أمر مختلف.. فى الحقيقة كنت فى ذلك الوقت أشعر أنه أشرف لى أن أذهب مباشرة إلى المأذون للطلاق ولكن ليس بناء على اقتراحك.

أنت يا دكتور تكون لطيفا جدا حين تبتسم، يخيل إلىّ أن هذه أول مرة أراك فيها مبتسما، وابتسامتك هذه هى التى تدفعنى لأن أقول لك كل شىء بلا تردد لو رأيت هذه الابتسامة على شفتيك فى أول زيارة ربما..

الابتسامة يا دكتور سر إلاهى، هى التى تدفئ القلب. لقد كان أبى رحمه الله يملك ابتسامة جعلته محبوبا من كل الناس، يقولون فى بلدنا أنه كان ينجح فى الانتخابات بسبب ثرائه، ولكنى اعتقد أنه كان يحصل على أصوات الناخبين بسبب ابتسامته الدائمة، وحين رأيت زوجى لأول مرة، لم أره كله، رأيت ابتسامته، وبقيت مدة طويلة قبل أن أدرك أن شعره الأسود وعينيه السوداوين لا يقلان سحراً عن ابتسامته..

قال له أبى حين جاء يخطبنى.. أنا لن أطلب منك مهرا

لابنتى.. لأن ابنتى لا يمكن أن تقدر بمال أريدك فقط أن تحبها كما كنت أحبها، وأن تعاملها بالحنان الذى أعاملها به... فهى وحيدتى وكل شىء فى حياتى.

آسفة يا دكتور.. لا أملك دموعى حين أتذكر أبى كان يحبنى حبا كبيرا... أعرف أنك مثل زوجى تكره أن تغلبنى دموعى، لكن ماذا أفعل يا دكتور تلك طبيعتى؟

لا أتصور حال الدنيا بلا كلمة حب.. بلا كلمة رقيقة حانية.. مثل هذه الكلمة هى كل ما كنت أطلبه من زوجى.. وللأمانة كان يقولها لى حين نكون على وفاق.. ألم أخبرك بذلك من قبل؟

ربما لم تأت قبل الآن مثل هذه الفرصة التي أتحدث فيها إليك من تلقاء نفسى.. أنا لست طفلة يا دكتور.. أنا أقدر زوجى حق قدره وأعرف أنه من الطبيعى أن يحدث خلاف بين الزوجين، لكن لا أدرى لماذا كان يخيفنى دائما مثل هذا الخلاف معه، كنت أشعر دائما عقب كل خلاف كأننى أرتكبت خطأ مميتا وأننى سوف أفقد محبة زوجى، ولهذا كنت أبكى بدموع غزيرة.. متوقعة أن يأتى ليجفف

دموعى بقبلاته كما كان يفعل فى بداية زواجنا.. لكنه بدأ يرفض بشدة أن أبكى.. وأصبح يتركنى دون كلمة طيبة..

أنا لم أكن أطلب المستحيل.. أنا كنت مستعدة دائما للتراجع عن موقفى فيما اختلفنا بشأنه، لم أكن انتظر سوى كلة ترضية أو حنان، لكنه فى تلك اللحظات كان يتحول إلى صخرة..

تصور يا دكتور.. مرة ضربنى بشدة.. وقال لى بصوت لم يعد يخشى أن يسمعه الجيران:

- سوف أترك لك البيت إلى غير رجعه.. إذا لم تكفى عن النحيب.. يجب أن أنام لأعرف كيف أؤدى عملى فى الصباح؟

حين تنجاب الغشاوة وتزول الأزمة أعجب كيف حدث ذلك؟ أقول له معاتبة:

- كلمة طيبة كانت تكفى لإنهاء كل شىء.

- فى تلك اللحظة أكون أقدر على شرب البحر، من التلفظ بمثل هذه الكلمة.

- لماذا؟

– لا أعرف لا أكون مقتنعا بك، ولا بدموعك، ولا بأى شىء.

– ألا تحبنى؟ أشعر أنك تحبنى، الخلاف لا يمنع الحب.

– فى تلك اللحظة لا أكون قادرا على الحب.

– فى تلك اللحظة أكون أحوج إلى حبك.

تلك « المشكلة يا دكتور. تريدنى أن أقول لك بعض الأمور التي كنا نختلف بشأنها؟ سأفعل.. كان خطئى بلاشك أننى تركته يحكى لك هذه الأمور من وجهة نظره.. طبعا هناك أمور كثيرة، لكن دعنى أحدثك عن أهمها..

أحيانا يا دكتور يخيل إلىّ أنك لا تعرف زوجى علىّ حقيقته، فى المرات التى رأيته فيها لم يكن طبيعيا.. كنا نجيئ إليك مختلفين ثائرين متشاجرين، يتكلم بجدية وأسى، لكن لو رأيته فى لحظات صفائه فسوف تجده إنسانا عذبا ودودا بسيطا متفاهما مجاملا مرحا مليئا بالحياة إلى أقصى الحدود.. لهذا كله كنت أحبه وأشعر أن كل شىء معه ممكن، لكن المشكلة تبدو لى نابعة من

هذا كله، من أنه لا يعرف حدودا للأشياء لا يعرفها إلا معى.. أنا زوجته التي أستحق منه كل شىء أفهم أن يكون رقيقا ومجاملا معى.. لكنه يفعل ذلك مع كل الناس، مع من يستحق ومن لا يستحق.

دعنى أقولها لك بصراحة يا دكتور زوجى يبالغ فى اهتمامه ومجاملته لكل الناس وبالأخص للسيدات.

هو لا يذكر لك الحقيقة كاملة بشأن هذا الموضوع. أنا سيدة وأعرف أن أى سيدة أخرى يمكن أن تفسر سلوك زوجى على أنه اهتمام خاص بها.. وأنها..

- .....

لا لا يا دكتور حتى لو كنت أنا أعرف أنه يعامل الجميع بهذه الطريقة.. فالجميع لا يعرفون ولن أكون معه فى كل مكان لأعرف النتيجة السيئة لطريقته هذه؟

أنا واثقة من أنه يحبنى.. لكنى لا أطيق أن أراه يستعرض قدراته على إثارة المرح والبهجة فى كل جلسة تكون فيها سيدات، لأن ذلك وحده يدفع البعض إلى استعراضات أشد وألعن ويصبح الفرق واضحا فى كل

جلسة بين حضوره وغيابه.

أعترف لك أنه لم يصل بى الحال إلى تصور أن لزوجى علاقة كاملة بامرأة أخرى.. ولكن كنت أشعر أحيانا أن ذلك أمر ممكن الحدوث، باستثناء اللحظات الأليمة التي حدثتك عنها.. لم يكن زوجى يرفض لى طلبا.. فهل يقوى على أن يرفض ما يمكن أن تفكر فيه امرأة أخرى؟ تمنيت مرة لو كان يقدر على أن يقول لى أنا «لا» بقوة وحسم لأتخيل أنه يمكن أن يقولها للآخرين.

فى الحقيقة يا دكتور وللأمانة أنه فى الأمور العادية كالتى كنا نختلف بشأنها، كان يحاول اقناعى بالحوار الهادئ.. لكن حين يكون الخلاف بشأن طريقته فىّ التعامل مع الأخريات فقد كان يغضب ويثور.. وكنت أهدد بقتل نفسى كان يرفض مجرد اتهامه، يرفض مجرد الدفاع عن نفسه، ويقاوم ثورتى بثورة أشد، لكن مع تكرار هذا النوع من الشجار، وقضاء ليالى عديدة بلا نوم، كنت ألاحظ أنه بدأ يعدل من طريقته فى التعامل مع أى سيدة تثور حولها شكوكى.

لكن ما كان يبتعث هذه الشكوك من جديد وبشكل ألعن هو أننى لا أجد الأثر الذى كنت أتوقعه لهذا التغير فى سلوك زوجى بالنسبة للآخريات.

ألم يكن من الطبيعى أن تشعر مثل هذه السيدة أن سلوكها البسيط مع زوجى لم يعد مقبولا من كلينا؟

وبدلا من أن أراها تعامل زوجى بشكل طبيعى أجدها تتعامل معي بلباقة شديدة، وود مفتعل.. ومعه بحرص لئيم، لا تملك ستره فى كل المواقف.

ألا يدل ذلك على أنه تفاهم معها حول كل شىء؟ لو جننت حقا يا دكتور ذات يوم فسوف يكون بسبب ذلك.. أنا أقبل الطلاق.. أقبل أن يصارحنى زوجى بأنه لم يعد يحبنى، لكنى لا أتصور أن يخدعنى مع امرأة أخرى.. مع امرأة تقل عنى فى كل شىء ثم تنظر إلىّ كمغفلة وتعاملنى كصديقة.

صحيح أن أى رجل لا يمكن أن يحب مثل هذا العدد من السيدات.. كما تقول يا دكتور.. لكن الأمر يختلف مع زوجى.. ألم أقل لك أنك لا تعرف زوجى على حقيقته؟

أن زوجى يا دكتور شديد الاهتمام بالناس، وبالأخص بالسيدات.. أنا لا أريد أن أظلمه يا دكتور ولكن تلك هى الحقيقة.. يمكنك أن تقول أنه يفعل أو يقول أى شىء بعناية وباهتمام.. إنه يختار كل كلمة يقولها، ويهتم بما يسمع،. ويعتنى بما يفعل.

ويأخذ الناس بجدية أكثر مما يستحقون.. ولذلك فهو يتمتع بصداقات واسعة.. ويحظى باهتمام الناس بينما أنا زوجته أكاد أسقط من حسابه فهل هذا معقول يا دكتور؟

- .....

كأنك كنت معنا يا دكتور.. هل أتفق معك أنت الآخر على ما تقوله لى..؟ ومع ذلك فلن أسئ بك الظن هذه المرة فأنا أعرف أنه لم يجىء إليك منذ وقت طويل.. لكنه قال لى مرة مثل سؤالك:

- لماذا لا أبحث لك عن عمل مناسب؟

- الأولاد دخلوا المدارس.. وأنت تعانين مع الفراغ.. ولو وجدت لك عملا مناسبا.. ربما.

فى الحقيقة يا دكتور فرحت فى البداية.. ليس بسبب أن لدى فراغا.. فمشاكل الأولاد لا تنتهى بدخولهم المدارس.. بل لأننى كنت ضائقة بحياتى وأتطلع إلى أى تغيير.. صحيح أننى لم أكمل دراستى.. ولن يكون العمل الذى ألتحق به مثيرا.. لكن مجرد التغيير بدا لى مهما، وعلاقات زوجى الواسعة بشخصيات مهمة يمكن أن توفر لى عملا جيدا على الأقل من الناحية المظهرية.. لكنى ما لبثت أن ملكنى الخوف حين جاء زوجى ذات يوم وطلب منى أن أستعد لمقابلة صورية بعدها أصبح موظفة فى مؤسسة كبيرة يرأسها أحد أصدقائه.

كنت فى أعماقى أشعر أننى فاشلة فى معاملة زوجى فكيف أنجح فى التعامل مع الآخرين فى مؤسسة كبيرة يرأسها أحد أصدقائه؟

خشيت أن أسبب له المشاكل مع أصدقائه لحسن الحظ أو لسوئه مرضت فى اليوم المحدد للمقابلة ولم التحق بأى عمل..

.....-

كنت أتوقع من البداية سؤالك هذا بل أننى في الحقيقة جئت لذلك، فى كل المرات السابقة كنا نجئ معا.. وأنقطعنا عنك فترة طويلة.. ولعلك توقعت أننا أصبحنا على ما يرام

ربما لو أننى كنتأتحدث معك فى البداية كما أفعل الآن لما حدث ما حدث؟ لكن أنا فى الحقيقة لا أدرى كيف أصف لك ما حدث ولا من أين أبدأ؟

باستثناء الحبوب التي كنت تصفها لى.. لم أكن مقتنعة بك ولا بعلاجك.. كانت هذه الحبوب تسلمنى إلى النوم الطويل.. أصحو بعده وقد نسيت مخاوفى ووساوسى كأننى أولد من جديد.. ولكن يا دكتور يبدو أن الإنسان لا يولد إلا مرة واحدة فقط.. وأن أعدى أعداء الإنسان هى ذاكرته، أصبح لى أنا وزوجى تاريخ طويل من الشجار والحزن.. وأصبحت حادثة صغيرة (كانت فى الماضى لا تفعل بنا شيئاً) كافية لبعث ذلك التاريخ كله ووضعه أمامنا كتمثال للتعاسة.

كنت أشفق على زوجى مما أسببه له وكنت أحس أنه

هو الآخر يرثى لحالى، ولم يكن أحدنا بقادر على أن يفعل للآخر شيئاً.. لا أدرى يا دكتور كيف أصف لك ما حدث؟ لسبب بسيط هو أنه لم يحدث شىء واضح محدود.. أتعرف يا دكتور ماذا يحدث للمصباح المضىء حين يحترق فجأة يرسل شعاعاً حاداً ثم ينطفئ، لو تخيلت أن شيئاً كهذا حدث لنفس المصباح دون أن ينطفئ المصباح.. يعنى يبقى المصباح مجرد لون لا تخطئه العين لكن دون حرارة أو ضوء أو تيار..؟ شىء كهذا يا دكتور حدث لزوجى لدرجة أننى لم أشعر فى البداية أن ثمة شىء قد حدث..

بل كنت يا دكتور شديدة السعادة بما حدث.. كنت اعتقد أننى استرددت زوجى.. استرددته لى وبطريقتى..

كان ذلك فى آخر موعد كان من المفروض أن نجيئ إليك.. قلت له:

- لم نعد فى حاجة للذهاب إلى دكتور.

- لن نذهب إليه..

- ما رأيك لو نذهب إلى السينما؟

- نذهب إلى السينما

- أى فيلم تحب؟

- أى فيلم تحبينه أنت؟

ليلتها كدت أطير من الفرح.. صحيح أننى لاحظت أنه لم يتكلم كثيرا أثناء عودتنا إلى البيت، ولم يعلق كعادته على الفيلم.. لكننى لم أهتم اهتماما شديدا بذلك.. قلت له قبل أن ننام:

- ألا تحب أن تشرب أو تأكل شيئاً؟

- أريد أن أنام...

ونام.. نام زوجى نوما عميقا.. أول شيء شد انتباهى هو ميله للنوم العميق.. زوجى الذى كان كالطائر أصبح ينام كالجثة.

أجل.. يا دكتور أجل.. سأقول لك كل شيء بصراحة كاملة.. فى وقته.

بدأ يلبى كل مطالبى دون أدنى معارضة.

- نريد أن نغير ديكور الشقة.

- نغيرها..

- ونجدد أصدقائنا..

- نجددهم.

- لابد أن يكون لك رأى فى اختيار أصدقائنا الجدد.

- المهم أن يكونوا هم موافقين على صداقتنا.

ربما كانت هذه الكلمة هى آخر نبضة سمعتها منه.

زوجى يا دكتور بدأ يفقد أهم شىء فيه.. بدأ يفقد الاهتمام، أنه يذهب إلى عمله فى الصباح.. ويعود فى الظهيرة، وغالبا ما نقضى المساء فى البيت أمام التليفزيون أو نخرج لزيارة أو فسحة ولكن لا.. ليس هذا زوجى يا دكتور.. المشكلات القديمة انتهت ولكن زوجى نفسه لم يعد نفس الرجل..

إنه يلبى كل ما أطلبه.. ولا يفعل أبدا ما لا أريد، ولكنه لم يعد أبدا نفس الرجل.. أنت تفهمنى يا دكتور دون شك.. حتى حين كنا نتشاجر.. كنا ننام معا، وكنت أشعر أنه يفعل ذلك بنفس الاهتمام الذى يعامل به الدنيا كلها بنفس الرقة واللطف والعناية.. أما الآن فإنه حتى هذا الشىء أصبح لا يثير اهتمامه..

- .....

حين قلت له ذلك رفض بشدة.. ولم يحضر معى اليوم إلا لأننى قلت له:

- أنا التى أريد أن أعرض نفسى على الطبيب.

فلم يعترض كعادته حين أطلب منه شيئاً، سَوف أقول له يا دكتور أنك تريده لأمر يتعلق بى فربما لهذا السبب يقبل أن يقابلك..

ثم خرجت...

وبقى الطبيب فى انتظار الزوج.

في هذا الصباح

فى هذه المرة، فى هذا الصباح، كانت تفاصيل المكان تصل إلى عينى فى وضوح بالغ، وفى دقة متناهية، مئات المرات فى كل صباح كنت أعبر هذه الصالة الممتدة إلى مكتبى دون أن يسترعى انتباهى سوى استطالتها، وانكسار درجة الضوء فيها، والصمت الممتد فى جنباتها، فى هذه المرة ألاحظ تداخل ألوان البلاطات فى الصالة كأنها لم تغسل قبل اليوم، موسيقى ناعمة مجهولة المصدر تمتد عبر الصالة تعمق الشعور بالصمت والهدوء، حتى المحررون فى حجرتهم الفسيحة التي أدخل منها إلى حجرتى يردون تحية الصباح بابتسامة رائعة، قمصانهم زاهية، وكذلك ابتساماتهم، لا أستطيع أن أقول ذلك عن ابتسامة سلوى، فابتسامتها كانت دائما رائعة وصافية وساحرة، فى هذا الصباح كانت تتحدث إلى زميل أعطانى ظهره، ولم يلبث أن التفت إلي ناحيتى ليرد

تحيتى، هل أبصر فى ابتسامة «سلوى» التى ردت بها.. على إيماءتى الصامتة ما جعله يقطع بأنه أنا من تحييه سلوى بتلك الابتسامة.. وهل حقا يدرك الجميع السر الذى أظن أننى أنجح فى إخفائه؟! والذى يقول لى عنه محمد الراوى:

- يا أهبل.. لماذا تحاول أن تنكر أجمل شىء يحدث لك ويحدث منك؟!

محمد الراوى فى هذا الصباح كان يجلس على مكتبه فى أقصى ركن من حجرة المحررين الفسيحة منكبا على أوراق يكتب فيها، أحيانا كنت أشعر أن محمد الراوى هو الوجه الآخر «لسلوى»، محمد الراوى الأصغر منى فى الخمسين من عمره، ولكنه يبدو دائما كأخ في الثلاثين، له وجه إنسان لم يكذب قط، وربما لا يَقْدِر على الكذب، أما كيف استطاع بالرغم من ذلك أن يعيش فى زماننا، وأن تكون له هذه الأهمية فى عمله؟ فليس عندى إجابة شافية لمثل هذا السؤال، أحيانا أقول: ربما لأنه لا يجيد شيئاً سوى هذا العمل، يعطيه كل طاقته الجبارة، وكأنه حبه

الوحيد فى هذه الدنيا، وأصبح الجميع هنا يحتملون صدقه الأليم، لأنهم يدركون أهمية الدور الذى يقوم به فى العمل، والعبء الذى يحمله أحيانا عن الجميع، بينما أكثرهم يتسكعون حوله، ويختبئون وراء أكاذيبهم الصغيرة مطمئنين إلى أن صدقه القاسى ينوب عنهم فى المواجهات الأليمة مع الرئاسات فى المركز!

توقفت قليلا معهم فى هذا الصباح - وكانت تلك طريقتى فى الاقتراب من جميعهم فى بعض الأوقات، أسأل عن «الفاكسات» التي جاءت هذا الصباح، وأشاركهم الشكوى التقليدية للعاملين فى هذا المكتب الفرعى من إهمال المكتب الرئيسى، لما نبعث به إليه من تساؤلات وآراء ومقترحات، نراها ضرورية لسرعة الإنجاز وللارتقاء بالعمل، وهم فى المركز يلومونا إلى حد التقريع لو لم نبعث لهم بالمزيد من الآراء والاقتراحات ولكن من يجرؤ على لومهم على التأخر فى الرد؟!

محمد الراوى هو الذى كان ينجح أحيانا فى تقريعهم بأسلوب غير مباشر حين يرد على تساؤلاتهم التى كان

يراها أحيانا غير ذات موضوع، حين يوضح لهم أنه قد سبقت لنا الإجابة عن مثل هذه التساؤلات من خلال موضوعات أخرى!

وفى الواقع أن العلاقة الملتبسة أحيانا بين المركز والأطراف كانت هى اللحن المميز لثرثرة العاملين هنا فى الفرع، فى بداية النهار وأحيانا فى نهايته، وكانت هى التى تجمع بين كل العاملين فى الفرع بالرغم من الفروق والمسافات التي تفصل بين أمزجتهم ومستوياتهم، فهم جميعا يدركون أنهم فى سلة واحدة يربطها بالمركز حبل سرى وحيد يرى البعض أنه أنا باعتبارى رئيس الفرع الأكبر سنا، ويرى البعض أنه محمد الراوى باعتباره الوحيد الذى يمارس عمله بنوع من العشق لا مثيل له، وباعتبار صدقه القاسى تعويذة الفرع الحارسة لنا جميعا من كل سوء، فكلامه مصدق عند المركز وفى الفرع على السواء، والبعض يراه «سلوى» لأن جمالها هو الوجه الآخر لصدق «الراوى» يقع الجميع فى أسره، وقد كنت أنا - برغم تشبثى بالإنكار - فى مقدمة الأسرى، لكن

من تحب «سلوى»؟ كان ذلك هو اللغز الأكبر..! فلا أحد يجرؤ على القطع، ولا أحد يخلو من التمنى! وكان ذلك كله جزءاً من سحر «سلوى» ومن عبقريتها! البعض يقول: هى لا تحب سوى زوجها وطفليها! وأنتم تعيشون فى الوهم، وتجرون وراء السراب! والبعض يقول هى تستحق «الراوى» ولكن الأحمق - لأسباب ينبغى الكشف عنها - لا يحب سوى عمله!

أما الراوى فقد كان الوحيد الذى يقول لى: يا أحمق البنت تحبك أنت!

وكنت أقول له: لأول مرة أكتشف أن ما نقوله عن صدقك هو مجرد سخافة وبلاهة!

فيقول لى: يا جبان البنت تحبك!

- أنها فى سن ابنتى.

- أنت جبان وغبى فالحب لا يعترف بهذه الفروق!

- أعرف أنك تعتقد بصدق ما تقول، ولكن صدقك يمكن أن يقود إلى كارثة!

- الكارثة الحقيقية تتعلق بفقدانك الشجاعة!

كنت أحس بصدقه الأليم الضارى يخترقنى، كم أتمنى أن يصدق صدقه معى، بينى وبين نفسى كنت أحيانا ألتمس دلائل صدقه فى سلوكها معى!

وجهها مثل وجه «الراوى» لا يعرف الكذب، وفى كل مرة كنت أراها وحدى، كنت أبصر فى وجهها دعوة للحوار والمكاشفة، ولكن الأمور كانت تمضى وكأننى بالفعل لا أقوى على مواجهة ما بعد الحوار والمكاشفة، وكان هذا هو اللحن المميز الآخر للعاملين فى الفرع! حب يخشى المواجهة، لأنه يخشى ما وراءها.. وعمل لا يحقق كل غاياته لأنه معلق بحبل فى أيد نائية تشده حين تريد، وتتركه يضيع حين لا تريد، ولا أحد يعرف بالتحديد ماذا يريدون وماذا لا يريدون؟!

المواجهة:

فى هذه المرة وفى الصباح، وبعد أن يئست تماما من أن يرفع محمد الراوى رأسه عن الأوراق التى يكتب فيها وينضم إلينا مررت على مكتبه وأنا فى الطريق إلى مكتبى

وقلت له:

محمد ياليت بعد أن تنتهى مما فى يدك أن تمر علىّ قليلا!

فى هذه المرة فى هذا الصباح ملأنى شعور قوى بأن الأمر كله أصبح يحتاج إلي مواجهة حاسمة، ليس فقط بين المركز والأطراف بل بيننا وبين أنفسنا أولا، سأقول لمحمد الراوى حين انفرد به بعد لحظات، سأعترف لسلوى بحبى لها، وسأتحمل كل النتائج، أن أفيق إلى الأبد من أوهامى السخيفة، أو أن أصعد معها إلى السماء السابعة، ولكن قبل أن أعترف لسلوى أريدك أن تعترف لى: لماذا وأنت تحب عملك كل هذا الحب لماذا لا تعمل مرة واحدة ما تحب؟ بل كن صادقا وشجاعا مرة أخرى وقل لنا ماذا تحب غير عملك بحق السماء؟

حين دخل محمد الراوى حجرته بدا وجهه أكثر من أى مرة سابقة بالغ الرونق بالغ الصفاء، على شفتيه ابتسامة نورانية لدرجة أننى تحيرت قليلا قبل أن أبدأ مواجهتى معه، فى لحظة الصمت هذه، اخترقت رأسى كرصاصة

فكرة لا أدرى من أين جاءت فكرة ثلجية باردة تقول: إن محمد الراوى الواقف أمامى الآن بكل هذا البهاء والرونق كان قد مات من شهور فى ظروف غريبة وربما غير عادية، قرأت نعيه بعينى فى الأهرام، وسمعت عن الظروف الغريبة من بعض الأصدقاء، وتلقيت فيه العزاء، وبكيت بدموعى عليه!

وبدا وكأنه يقرأ خواطرى، وكأنه يرجونى ألا أصدقها وألا اصارحه بها.

وجدتنى أصرخ فيه وقبل أن يفتح فمه بكلمة:

– محمد طوال عمرى أعرف أنك مجنون.. صادق لكنك مجنون، تعمل طوال الوقت كساعة لكنك مجنون، تعرف دخائل القلوب وربما هذا سر جنونك! وسر هروبك فى العمل قل يا محمد إنك أنت الذى أطلقت منذ شهور إشاعة موتك، وأن هذا كان جزءا من جنونك؟!

لأنه لو كان موتك حقيقة، فليس لهذا سوى معنى واحد!

أن هذا الصباح الجميل كان مجرد حلم، وأن لحظة

المواجهة والمكاشفة ستبقى مجرد أمنية لا تتحقق حتى فى الأحلام!

رأيت فى عينيه ألما شديداً حرت فى تفسيره، كأنه يقول:

- أنت الذى تقتلنى هذه المرة أيضاً!!

وكنت وأنا أعى أننى أتسلل خارجا من الحلم أرى صديقى الذى كان واقفا أمامى فى قمة الرونق والبهاء يتلاشى كما يتلاشى الضوء، ويغمرنى شعور عميق بالذنب والأسى على فنائه وفناء العالم الذى أضاء فى خاطرى فى هذا الصباح ثم أخذ يتلاشى وأتلاشى معه!

اليقظة:

حين جلست فى فراشى، وأنا أتصبب عرقاً، وقلبى يدق بعنف، لم أكن أدرى هل ما أكتشفه الآن وأنا جالسا فى السرير هو حياتى أم موتى؟!.

الأعمى.. والبحث عن قطة سوداء

رفعت رأسى عن الأوراق التي كنت غارقا فى قراءتها، يبدو أننى قد غرقت فعلا فى القراءة، فالمناضد التى كانت خالية من حولى، وأغرتنى باختيار هذا الجانب من حديقة النادى لقراءة فى هدوء، قد أصبحت كلها ملأى بالرواد، كيف لم أشعر بوصولهم أو حتى بجلوسهم؟! يلوح أن الجميع هنا طلاب هدوء مثلى، قد تختلف الأسباب، لكن يبقى الهدوء، والخضرة وظلال الأشجار الأكبر سنا من كل عواجيز النادى وعبق الزهور فى المماشى، هو ما يميز هذا الجزء من النادى عن بقية الأجزاء الصاخبة بأصوات اللاعبين فى الملاعب والأطفال فى حدائق الأطفال.

بعد نظرة خاطفة على المقاعد فى هذا الركن لاحظت أن معظم الجالسين فيها من العجائز أو من الشباب، كانت تلك أول مرة أجلس فيها فى النادى بعد غيبة سنين طويلة من العمل بالخارج، بدا لى المشهد طريفا وجديرا

بالتأمل، شباب هذه الأيام يعشق الهدوء مثل العواجيز.

وأنا أسترد نظراتى من جولتها الاستكشافية، وقبل أن أعود إلى أوراقى، لاحظت أن المنضدة المجاورة لى والتى لم أبصرها لأول وهلة، ربما لشدة قربها منى، يجلس إليها ولدان وبنتان فى العشرينيات من العمر تقريبا.

الولدان لعلهما طالبان فى إحدى الكليات العسكرية، شعر رأسيهما قصير محلوق من الخلف والجوانب، أحدهما سمرته تبدو طبيعية، والثانى تلوح كأنها صنيعة شمس صحراوية فى أحد المعسكرات، البنتان: واحدة وجهها أبيض مستدير يعمق الشعور باستدارته شعر ناعم قصير ينسدل على جميع جوانب الوجه القمرى والثانية قمحية ووجها مستطيل فيه شىء من شحوب ونحول لاتكاد تشعر بهما، عندما تطل من شفتيها تلك الابتسامة المترددة، التى ما إن تكتمل حتى تكتشف إنه في هذا الوجه المستطيل النحيل عينان ساحرتان تحتاج إلى جهد كبير لكى تحول عينيك عنهما، لحظتها كدت أعرف لماذا لم أبصر عينى البنت الأولى ذات الوجه

المستدير فهى دائمة الحركة، دائمة الابتسام والابتسام الدائم شأنه شأن الكآبة يجعلك لا تبصر فى الوجه المبتسم أو المكتئب أى تفاصيل أخرى!

وحين عدت أنظر فى أوراقى لاحظت أننى فعلت ذلك عامدا ربما لأننى انتبهت إلى أننى قد تجاوزت الحد فى النظر إلى الولدين والبنتين.. وماذا يمكن أن يقولوا عن عجوز فضولى؟!.

وفى الواقع أننى كنت فى حاجة إلى بعض الوقت لأكتشف أن الولدين والبنتين لا يمكن أن يكونوا قد لاحظوا شيئاً من فضولى أو حتى فضول غيرى، فهم غارقون تماما فى عالم خاص بهم، يدور حديثهم فى همس وأحيانا فى صمت، وبالرغم من قربهم منى فلم أكن استبين أية كلمة تصدر عنهم. هل كان ذلك جزءا من عشقهم للهدوء أم أن عشاق هذه الأيام لا يعبأون كثيرا بلغة الكلام اكتفاء بلغات أخرى لا يعرف جيلى شفرتها؟!

المنضدة التي يجلس إليها الولدان والبنتان مربعة، كل ولد يجلس فى مقابلة بنت هى بلاشك فتاته، هذا ما

افترضته لأول وهلة، لكن المشهد من منظور آخر يبدو وكأن الولدين متجاوران من ناحية والبنتين متجاورتان من ناحية أخرى، لكن المنظور الهندسى ذاته ينتج أيضاً ولدا وبنتا متجاورين على كل ناحية أخرى؟!

فجأة وجدت أمامى لعبة مثيرة مسلية، هل بمقدورى أن أعرف أيا من الولدين يرتبط بأى من البنتين اعتمادا على وسائل أخرى غير وسائل الهندسة المراوغة؟!

زجرت نفسى حتى لا أتمادى فى هذه اللعبة التي تنكرها تقاليد جيلى وربما تقاليد كل الأجيال! وحتى لا أصبح مثل ذلك الأعمى الذى يبحث فى حجرة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها!.

وعدت أدفن رأسى فى الأوراق التى سبق أن دفنت فيها حياتى كلها! شدتنى هذه المرة من أوراقى ضحكة ناعمة من البنت ذات الوجه القمرى والشعر الناعم القصير، ويدها تخبط يد الولد المقابل لها فى حركة خاطفة، تعود بعدها بظهرها إلى الوراء فيظهر ثدياها النافران فى مشهد لم أستطع أن أسحب عينى عنه ألا

بجهد كبيد، ويبدو أن ما أطلق الضحكة الناعمة قد جعل البنت الأخرى تبتسم فى سعادة بالغة فتتألق عيناها الساحرتان ببريق نافذ أخاد، وبدا الأمر كأنه نوع من المبارزة تستخدم فيه كل بنت أفضل ما لديها من أسلحة، لكن هل يفيد شىء من هذا كله فى حل الغاز اللعبة المثيرة المسلية؟ على أيامنا كان الحب فى مثل هذه الأماكن حالة نادرة يختلسه فتى وفتاة وحدهما، لا يحبان أن يكون لهما شريك، ما يقولانه أو يفعلانه يبقى سرا يحرصان على كتمانه، وكان الكتمان يضفى عليه جمالا وسحرا، لكن من قال أن مثل هذا الحب المعلن أقل جمالا أو سحرا؟ كنت قد أصبحت جزءا من المشهد الذى يضج بالسرور والمرح، لم أعد ذلك العجوز الفضولى ولكن ذلك الانتماء للمشهد لم يمنع ذلك السؤال الكامن المشاكس من أن يطل برأسه مرة أخرى: هناك لاشك حب رائع يغمر المكان ويكاد يغمرنى، فالحب هو الحب، لكن مَن مِن الولدين يحب مَن مِن البنتين؟!

من أى زمن يتسلل هذا السؤال؟ هل هو حقا سؤال

كل الأزمنة؟ بالتأكيد سوف يعلن الحب الحقيقى عن خصوصيته، فى ومضة خاطفة كالبرق، فى نظرة شاردة قد لا تتجه إلى من تحب، ولكنه هو الذى يستقبلها، يلتقط نبضها، يفك شفرتها، يعرف أنها له ويرد عليها، فى دوام النظر، فى الميل إلى الاقتراب، وكان لابد أن اكتشف للأوراق التى كانت أمامى والتى قادتنى إلى هذا الفخ، أن اكتشف لها وظيفة جديدة فأتشاغل بالنظر إليها كيما أفك شفرة هذا اللغز دون أن أبدو مجرد عجوز فضولى.

تمنيت أن تكون ذات الوجه النحيل الشاحب هى صديقة صاحب الوجه الذى صنعت سمرته شمسه صحراوية والولد الآخر للبنت الأخرى، هكذا قسمتها بحدس لا أدرى له سببا، ويبدو أن الأوراق التى تظاهرت بالانشغال بها قد شغلتنى فعلا بعد أن أدمنتها طوال عمرى، فقد فوجئت مرة أخرى وأنا أرفع رأسى عنها بما يمكن أن يكون مفتاحا للغز اللعبة المثيرة، رأيت البنت ذات الوجه المستدير تميل قليلا على الولد ذى السمرة الطبيعية فى حديث هامس طويل، وتوقعت بناء على قسمتى القائمة

على الحدس أن تلمع فى عينى الولد الآخر نظرة غيرة، أو أن يظهر على وجه أى درجة من درجات التوتر، لكن ما حدث كان مخالفا لكل توقع، فالولد الآخر كان يواصل حديثه مع البنت الأخرى بشكل عادى دون أن تظهر على وجهه أدنى رغبة فى معرفة ما يتهامس بشأنه الولد والبنت المجاوران، ألغيت القسمة الأولى التى ربما تعجلتها وبقيت انتظر، حتى لو كان كل ولد قد جاء مع اخته ما الذى يمنع أن يكون هناك حب بين كل ولد واخت الآخر؟ الحب لا يمكن اخفاؤه وأنت لا يمكن أن تكون محايدا مع من تحب، ولا أن تكون عادلا فى توزيع اهتمامك!

متى بدأت أدرك أن انتظارى قد يطول؟ ربما عندما بدأت ألاحظ أن ما أراه أمامى ليس سوى تلقائية مدهشة يتصرف بها الولدان والبنتان، تلقائية تتجاوز الحب ذاته، فقد يكون الحب قائما هناك أو غير قائم بالمرة، فهو فى كل حالاته لا يحتاج إلى نفى أو إثبات، ربما كان أمرا خاص جدا لا يحتاج - عند من يعنيهم أمره - إلى تعبير عنه أو دليل عليه!

كل مفردات الحب على أيامنا، النظرة، الابتسامة، الكلمة،. لمسات الأيدى، وحتى خبطات الأرجل، يتم تبادلها هنا فوق المنضدة أو تحتها كنوع من العملة لا تختلف قيمتها من يد لأخرى.

مرت فتاة أخرى ترتدى الجينز أيضاً، أشارت لهم وهى تصيح «هاى» أشاروا لها كى تنضم إليهم، سحبت كرسيا وانضمت إليهم، لم تتردد ولم يبد الضيق على أحد منهم، وتخابطت الأيدى أيضاً، ظننت لبعض الوقت أن وجودها خارج القسمة قد يحدث الفرق الذى ظللت انتظره، ولكن ما تأكدت منه أن انتظارى قد يطول مرة أخرى، برز فجأة ولدان يرتديان بنطلونات عادية، لهما شعر عادى، صاحا «هاى» واتسعت الدائرة بمقاعد جديدة، واختلطت الأوراق والأصوات.

وفى الواقع أنه لم تكن هناك عندهم قبل ذلك ولابعد ذلك مشكلة، المشكلة كانت عندى أنا، وجدت حلها فى الأوراق التى كانت أمامى، فى هذه المرة لم أدفن نفسى فيها ولكنى حملتها ومضيت لحال سبيلى.

الشوط الثاني

فى البداية كانوا يلتقون فى المناسبات، ثم أصبحوا يصنعونها من أجل أن يلتقوا، هم مجموعة من المثقفين جمعتهم ظروف العمل فى بلد عربى، كانت تربطهم الأفكار والمعتقدات فى مرحلة، ثم أوضحت لهم ظروف الغربة – دون لبس – أن حاجتهم إلى أن يلتقوا لاتزال باقية حتى بعد أن تسلل الاختلاف إلى أفكارهم فى عالم دائم التغير!

فى تلك الليلة كانت مناسبة وصول صديق قديم للمجموعة إلى البلد الذى يعملون به، صديق لم يلتق به أكثرهم منذ سنين طويلة، فى مثل هذه المناسبة يسود اللقاء جو عاطفى، يدركون جميعا أن النظرة الجديدة تلمح بوضوح ما فعله الزمن فى الوجوه والأجساد والعقول والنفوس، فيشفقون من اللقاء بقدر ما يتلهفون عليه.

ضيف بلا دعوة

فى تلك الليلة أيضاً كانت ذكريات الشباب الذى كادوا جميعاً يودعونه هى التى تنقذهم من هموم السياسة التى لا يملك أحد أن يودعها، والتى قد تفجر الاختلافات، قد تفسد جو الود الذى يتلمسونه مع الصديق القديم! ثم اقتحم الجلسة ضيف بلا دعوة، وكان صديقنا «س،ع» هو الذى وجه دعوة منفردة لهذا الضيف حين نظر فى ساعة يده، ثم ضغط على زر «التلفاز» فوجدنا أنفسنا أمام إحدى مباريات «كأس العالم» سنة ١٩٩٠ المذاعة على الهواء فى دور الثمانية!.

للأمانة فإن «س،ع» فى الوقت الذى فتح فيه «التلفاز»، مد يده إلى مؤشر الصوت فهبط به إلى أقصى درجة ممكنة حتى لا يفسد الجو على مريدى الحديث، وفى الواقع أن الجميع كانوا يفكرون في الانطباع الذى سيخرج به الصديق الزائر عن «س،ع» حين يراه فى تلك الليلة، ففى الماضى كان «س،ع» واحدا من ملوك الحديث وبخاصة فى السياسة ولكنه فى السنوات الأخيرة أصبح

واحداً من ملوك الصمت ومن مدمنى مشاهدة مباريات كرة القدم!.

أبدى البعض ارتياحاً صامتاً، وكأنه يقول: خير له أن يتلهّى بمتابعة المباريات من أن يشيع كآبته فى الجلسة، ولكن ما فعله «س،ع» أحدث بطريقة ما شرخا في الجلسة، فبعض المجموعة راح يتابع المبارة الصامتة على استحياء، نظرة على التلفاز، ونظرة على الأصدقاء، ويبدو أن بعض ملوك الحديث فى الجلسة، ممن لم يتنازلوا بعد عن عروشهم، رأوا فيما فعله «س،ع» تحديّا صامتاً لهم وقلة ذوق فى حق الضيف، الذى يجتمعون حوله، فصمموا على أن يحاربوه بسلاحه، فطور أحدهم الحديث إلى تذكير الحضور بتنديد الكاتب الإيطالى «ألبرتو مورافيا» باهتمام الناس وسلطات الدولة والمجتمع بكرة القدم على حساب قيم أخرى أكثر أهمية.

وتطوع ملك آخر بتقديم تنظير مناسب لعالمنا الثالث، فأفاض فى الحديث عن المؤامرة التى تكمن وراء هذه الظاهرة من تعمد الساسة والمسئولين إلهاء الجماهير عن

واقعها وقضاياها المصيرية بتنظيم متعمد لنشر هذا الوباء العصرى الذى يفتك بالعقول والمشاعر والوقت، حين يشيع بين الناس عادات جديدة مثل أن يشعروا بمتعة الانتصار، وبمعاناة الهزيمة من خلال غيرهم! أن يتعلموا كيف يكونون أبطالاً بلا بطولة، أو ضحايا دون تضحية!

واحد من المجموعة لم يصل بعد إلى أن يكون ملكاً من ملوك الحديث هو الذى لاحظ أن الضيف نفسه راح يمارس لعبة مخالسة النظر للتلفاز لمتابعة المباراة، فأراد أن يضفى شيئاً من المشروعية على ولع الناس بمتابعة كرة القدم، فراح يتحدث عن العلاقة بين الصراع الذى يهرع الناس إلى ملاعب كرة القدم ليتفرجوا عليه، وبين الدراما التى عشقتها الإنسانية منذ ظهور المسرح عند الإغريق وحتى الآن.

ثم ألمح إلى أن الصراع فى كرة القدم - هو فى النهاية تجريد للصراع فى المسرح، لا غنى عنه لكى يتاح للملايين أن تعيش الحالة التى كانت ولاتزال تجتذب الخاصة إلي المسرح!

كان الشوط الأول من المباراة يقترب من نهايته، وكانت حمى اللعب تقترب من ذروتها فكلا الفريقين يحاول أن يخرج منتصراً من الشوط الأول، وشمل المجموعة صمت ثقيل شارك فيه حتى ملوك الحديث. كانت ضجة الجماهير فى أحد الملاعب إلى جوار تعليق المذيع هى فقط ما يمكن الإنصات إليه فى اللحظات الأخيرة من الشوط الأول!

ملك الصمت يتكلم

حين أعلن الحكم نهاية الشوط الأول وفى فترة الاستراحة امتدت يد صديقنا «س،ع» إلى زر الأغلاق فى «التلفاز» فساد الصمت للحظات قصيرة، ما لبث صديقنا ملك الصمت أن قطعها وهو يقول:

«أنتم تبسطون المسألة حين تتحدثون فقط عن العلاقة بين لعبة كرة القدم، ولعبة المسرح، المسألة هى أن الناس يجدون فى لعبة الكرة ما لا يجدونه فى لعبة الحياة اليومية، وما لم يستطع أحد من المثقفين أو الساسة أن يقدمه لهم حتى الآن فى صراعهم اليومى المرير «ففى كرة

القدم يدور صراع يعرف كل لاعب فيه بوضوح، وربما لأول مرة، من هو معه ومن هو ضده؟! وهذا أمر نادر الحدوث فى الواقع اليومى!».

«وكرة القدم هى المعركة الوحيدة التى يدور فيها صراع ينظمه القانون، ويحرص الطرفان على أن يسود القانون، ويحترم لأن احترامه يعطى أفضل فرصة للمنتصر وللمنهزم على السواء! والملعب هو المكان الوحيد الذى يمكنك فيه أن تتحقق من سيادة القانون، فهو من ناحية مكشوف، وثمة حكام يرقبون اللاعبين وجمهور يتابع الحكام واللاعبين، وكل شىء واضح أمام عينيك ذلك الوضوح النادر الذى لا وجود له فى غير الملعب، الجيد والردئ الصواب والخطأ، ومهما يكن دور المصادفة فالردئ لا يغلب مرتين.

لا مكان للخديعة:

فى اللعب لا مكان للخديعة، بل إن التمويه بالجسد والحركة مهارة مشروعة يمارسها الأكثر كفاءة وقدرة

ويحظى من أجلها بالتصفيق، ولأول مرة لا يكون فى طوق إنسان أن يخدع أحداً غير خصومه!

كل الأشياء التى يحلم بها الناس، ويعيا الساسة والمخططون والمسئولون بجعلها جزءا من الواقع اليومى هى هنا فى أرض الملعب فى متناول السمع البصر وفوق النجيل الأخضر، فلأول مرة تلتقى الحرية بالنظام دون أن يضحى بأحدهما فى سبيل الآخر! للامتياز الفردى دوره فى لحظة دون أن يعنى ذلك إلغاء عمل الفريق الجماعى كأساس لا غنى عنه ولا جدال فيه!!

ولن يتحدث سوى الحمقى عن إمكان الاعتماد - في الملعب - على النبوغ الفردى وحده! «فى الملعب لكل لاعب دور ومكان، ولن يوجد «بيروقراطى» واحد فى إدارة الفريق يمنع المدافع من أن يتحول إلى الهجوم والمهاجم من أن يتحول إلى الدفاع وفق تطور الأحداث فى الملعب، واللاعب وحده هو من يقدر الموقف ويتحمل مسئولية صوابه وخطئه في التقدير!

ودائما يعرف كل لاعب لماذا يصفق الناس له ولماذا

يصفرون؟ وفى لحظة احتدام المعركة، واختلاط الأجساد والمشاعر تساعدك الخطوط والدوائر وألوان الملابس وصفارة الحكم وعيون «الكاميرات» وفوق ذلك كله أصوات الجماهير على استرداد وعيك المسلوب بلحظة الاحتدام!

ولأول مرة - وهذا لا يحدث فى الحياة كثيراً - يرتبط الفعل بنتائجه إيجاباً وسلباً، عدالة فورية، لا تنتظر جهود الباحثين عن الحقيقة فى حياد وصبر، أو وصول سلطة عادلة إلى الحكم فى هذا الزمن أو فى غيره، في هذا العالم أو فى غيره، وقد يرى البعض أن الحكم فى النهاية إنسان يخطئ أو ينحاز ولكن العزاء أن عيون الجماهير وعيون الكاميرا قد رأت الوقائع شبه كاملة ويمكنها أن تصنع حقائقها الخاصة وتمنحك عزاء غير مؤجل، فالحقائق فى كرة القدم تكتشف وتصنع فى ذات الوقت وبنفس المقدار!

كان صوت صديقنا «س،ع» يرتفع وهو يتدفق مسترداً سحره القديم، فلم ينتبه أحد لهمسة أحد أفراد المجموعة الذى بدا وكأنه يخاطب نفسه.

- «كنا نظنه زهد الحديث فى السياسة!».

بينما استطرد «س،ع»:

«لأول مرة تذوب الفروق حقاً بين الأمير والصعلوك بل بين كل الفئات والطبقات فى مدرجات كرة القدم، وينجح اللاعبون بألعابهم الناجحة أو الفاشلة أن يزيحوا جانباً فروق الملابس والمقاعد والمقاصير ليكشفوا عن الوحدة الخالدة للجهاز العصبى للإنسان حين تنطلق من كل الحناجر فى لحظة واحدة وفى كل مكان صيحات الاستحسان أو الاستهجان حين تدور الأعناق نفس الاستدارة، وتطل من كل العيون النظر القلقة المترقبة ذاتها، حين تكشف الحركات الهوجاء الواحدة عن جذر الحماقة المتأصلة فى كل الناس من كل فئة وطبقة!

«فى كأس العالم يمكنك أن ترى لأول مرة الطريق كاملا من السفح إلى القمة، وأن تتابع الرحلة بكل تفاصيلها، أن ترى كيف تولد أسطورة الفرد البطل أو أسطورة الفريق، تتابع رحلة الأسطورة من أحد شوارع قرية إفريقية أو آسيوية ماذا يفعل الجهد والصبر والحظ؟!

الأبطال لا ينتظرون حكم التاريخ والمؤرخين، هنا عرس للإنجاز وللوضوح، زواج عادل للمنطق والمصادفة!

«لأول مرة يمكن أن تلقى دولة عظمى هزيمة كروية مدوية فتترك مكانها لدولة صغيرة دون أن تختل أمور العالم، ودون أن تنهار الأسعار فى أسواق النقد العالمية!

هنا تصنع خرائط جديدة للكفاءة والصمود والعزم، يحتلها الجديرون بها من كل جنس ولون دون تفرقة أو تمييز، وقد تجد شعوب العالم الثالث لأول مرة لها مكاناً فى القمة أو على مسافة منها وحين تستبد حماقة الغضب بالكبار يجدون من يهدئهم قائلا :

– لا تنزعجوا أيها السادة فالمسألة مجرد ألعاب!

الشوط الثانى :

على حين فجأة نظر أحد ملوك الحديث فى ساعة يده، ثم ترك مقعده ليفتح التلفاز على بداية الشوط الثانى، فامتلأ الصالون بأصوات الجماهير فى أحد ملاعب إيطاليا، وساد الصمت المجموعة، وربما لم يسمع الجميع

هذ الهمسات التى ترددت بين بعض أفراد المجموعة.

– لقد نجح «س،ع» فى أن يكسب الجولة لصالح كرة القدم، وأن يضم أحد ملوك الحديث لنادى الصامتين!

– اسكت يا أحمق.. كانت تلك هى الطريقة الوحيدة لإسكاته ومنعه من أن يسترد عرشه المسلوب، ومن أن يندفع لقول ما لا تحمد عقابه، فالمصيبة أننا مازلنا نحبه!

وخلال الشوط الثانى، كان التلفاز هو الضيف الذى اجتمعنا حوله فى تلك الليلة!

«في المرآة»

ملامح في وجوه

النيل والوغد

لمرات كثيرة – حتى كدت أظنها القاعدة– وجدت صديقى النبيل يلقى الهزيمة فى كل معركة يخوضها ضد صديقى الوغد.

فى البداية كانت هذه النتيجة تثير دهشتى، ثم أصبحت تهيج أحزانى، ثم كان الوليد الطبيعى لتفاعل الدهشة والأحزان هو رغبة قوية فى أن أقترب من غبار المعركة الأبدية الدائرة بينهما لعلى أفهم أكثر لماذا ينتصر صديقى الوغد وينهزم صديقى النبيل؟

بعد الاقتراب كدت استدرج نفسى إلى البحث عن معنى جديد للنصر، ومعنى جديد للهزيمة حتى أضمن لصديقى النبيل فى إطار هذا المعنى نصرا أبديا ولصديقى الوغد هزيمة أبدية، دون أن يتغير شئ فى الواقع الخارجى، ولكننى أدركت أننى سأتحدث بلغة غير

اللغة السائدة للنصر وللهزيمة، وقد يكون ذلك – بالنسبة لى – نوعا من الهزيمة!

عدت أتعامل باللغة السائدة للنصر وللهزيمة، وأبحث عن الأسباب باللغة ذاتها، فاكتشفت أن صديقى النبيل يحمل فى داخله بذور هزيمته، حتى قبل أن تبدأ المعركة، ففى كل مرة نشب بينهما خلاف، كان صديقى النبيل يحرص على أن يرى القضية أو الموقف الذى يختلفان بشأنه من زاويتين، الزاوية التى يقف هو فيها، والزاوية الأخرى التى يقف فيه خصمه الاخر، فقد كان يعتقد – وكأن ذلك جزء من غرائزه – أنه بهذه الطريقة يمكن أن يرى بشكل أفضل جوانب الاتفاق وجوانب الاختلاف فى القضية أو الموقف، ليعرف كيف يزيد من مساحة الاتفاق وينقص من مساحة الاختلاف سواء بتنازلات متبادلة أو بتعديلات متوازنة فى كل جانب، فلم يكن يريد ابدا أن يصل إلى النقطة أو اللحظة التى يكون فيها إزالة ما هو خطأ (فى رأيه) مرتبط بازالة من هو مخطئ!؟

وكان هذا الموقف فى حد ذاته يعنى أن القوى الداخلية

لصديقى النبيل موزعة على جبهتين، تفكر وتوازن وتستعرض إمكانات التغيير فى كل جانب، أما القوى الداخلية لصديقى الوغد فإنها تكون متمركزة على جبهة واحدة صلبة، لا تكاد ترى سوى هدف وحيد ينبغى أن يتحقق ولو كان ثمن تحققه إلغاء الآخر!

وكان هذا الموقف يعنى فى النهاية أن حرص صديقى النبيل على أن يزيل الخطأ دون إزالة المخطئ يقابله اعتقاد صديقى الوغد أن أسهل طريق لإزالة ما يعتقد أنه خطأ هو إزالة المخطئ

حين حاولت أن أفهم سر هذا الحرص الغريزى لدى صديقى النبيل وجدته ينبع عنده من نوع من الإدراك - يوشك أن يكون غريزيا أيضا - بأن الحقيقة الإنسانية تملك وجوها متعددة، بينما الإنسان الفرد لا يملك سوى فرصة واحدة للوجود، وبأن هذه الوجوه المتعددة للحقيقة لا سبيل إلى رؤيتها سوى من خلال العلاقة الحية بين الأنا والآخر، ولو كان الآخر هو صديقى الوغد، ومن هنا كان حرص صديقى النبيل على عدم إلغاء الآخر هو جزء

من حرصه على الحقيقة، ومن عشقه للحياة التى تتجلى الحقيقة من خلالها! ومن الغريب أنه من هذا العشق للحياة وللحقيقة والإدراك لقيمتهما معا يلقى صديقى النبيل أحيانا هزيمته وأحياناً موته!!

يدرك صديقى النبيل بأن كل إنسان له تحيزاته الخاصة التى قد تشوش على بحثه عن الحقيقة، وأن موقفه هو الآخر فى قضية من القضايا لابد أن يكون مشوبا بهذه التحيزات، وأن عليه لكى يصل إلى حقيقة نسبية معقولة ومقبولة منه ومن صديقى الوغد فإن عليه أن يوجه جزءا من أنظمة دفاعه ضد هذه التحيزات فى داخله، ومن هنا فهو يدخل معركته ضد صديقى الوغد، وهو يضمد جراحه الداخلية التى ألحقها بذاته ، فتكون الرصاصة الأولى فى المعركة الدائرة بينهما قد أطلقت عليه منه، بينما يوجه صديقى الوغد كل نيرانه خارج ذاته!

* متى أدركت أن أخطر نقطة ضعف لدى صديقى النبيل هى ذاكرته؟ ربما حدث ذلك فى الوقت الذى

اكتشفت فيه أن صديقى الوغد يملك ذاكرة انتقائية، فهى تملك قدرة مذهلة علي أن تنسى تماما كل مالا يخدم موقفه فى المعركة الراهنة وكأنه لم يحدث ذات يوم فى هذه الدنيا، يصبح الماضى فجأة وكأنه معرض ماثل بكل الأحداث والذكريات التى تخدم لحظة المعركة الراهنة فقط فى حياة صديقى الوغد..!

أما صديقى النبيل فإن مأساته تبدأ من قوة ذاكرته ومن موضوعيتها معا بل ومن حيادها.. فحين يستدعى من خلال هذه الذاكرة جزئية من الماضى تخدم موقفه فى المعركة الراهنة ضدصديقى الوغد فإنها لا تجيئ أبدا وحدها، بل تأتى فى سياق علاقاتها وغالبا ما تحمل معها من جزئيات المكان والأحداث فى ذلك الماضى ما يناقضها وهو ما ينسجم مع ميل صديقى النبيل إلى البحث عن الوجوه المتعددة للحقيقة، وليس بالضرورة ما ينسجم مع الموقف الذى يتخده فى المعركة ضد صديقى الوغد فيجد نفسه مضطرا لاعادة النظر وإعادة تكييف الموقف، مما قد يفقده فرصة المبادأة فى الهجوم أو اليقظة فى الدفاع،

وهكذا فإن صديقى الوغد يبدو ملك اللحظة الراهنة دائما، يوظف الماضى والحاضر لخدمة هذه اللحظة، أما صديقى النبيل فإن لحظة الحاضر عنده تبقى مثقلة بأعباء الماضى والحاضر والمستقبل!!

آنذاك بدأت أصحح بعض أفكارى عن صديقى الوغد، كنت أظن أن جزءا من مأساته أنه عاجز عن إدراك الحقيقة ذات الوجوه المتعددة، وإيثاره للحقيقة البسيطة التى تختفى وراءها مصلحته فى اللحظة الراهنة، إنما هو نوع من كسل العقل الذى يؤثر الراحة ويخشى مغامرة التغيير، ولكننى أدركت حجم خطئى، وبدأت أصحح أفكارى مع ملاحظتى لما أسميته الذاكرة الانتقائية لصديقى الوغد، فصديقى الوغد هو فى الواقع أكثر نشاطاً وحيوية من صديقى النبيل، فهو يدرك الحقيقة ذات الوجوه المتعددة، ولكن ذاكرته الانتقائية تختار من وهذه الوجوه بذكاء كبير ما يخدم معركتها فى اللحظة الراهنة فقط، وتقوم كالعادة وبقدرتها المذهلة على إلغاء بقية الوجوه! ربما كانت مأساة صديقى الوغد الحقيقة هى أن

يعيش فقط فى لحظة الحاضر، وأنه يلغى الماضى والمستقبل لحساب لحظة الحاضر، إنها سجنه الأبدى، وسر قوته الأبدية، وسر قدرته على أن يصوغ حقيقة بسيطة سهلة تجتذب إلى صفوفه آلافا من المتعبين من السير وراء صديقى النبيل!

رجل لا يتجاوز
الدقيقة الخامسة من وقته

له زمن مفضل، يكسب فيه معركته الاولى - وغالبا ما تكون الاخيرة - ذلك الزمن هو الدقائق الخمس الاولى، التى يلتقى فيها بشخصية جديدة، سواء سعى هو اليها أو سعت إليه!

فى الدقيقة الأولى من هذه الدقائق الخمس يلتقط نقاط القوة ونقاط الضعف لدى هذه الشخصية، يلتقطها من النظرة، والخطوة، والوقفة، والجلسة، وطريقة التحية، وطريقة عرض الموضوع أو الاستماع اليه!

ربما كانت هذه الموهبة اللاقطة النافذة هى أعظم مواهبه، لأنها هى التى تحدد له نوع وحجم الأسلحة التى يستخرجها من ترسانته، ليحسم معركته الاولى والأخيرة فى الدقائق المتبقية!

الدقائق الخمس الأولى هى فى عصرنا هذا كل الزمن المتاح أمام الرجال من امثاله، وقد عملته التجربة أن

الجهد المبذول لخلق الانطباع الاول اوفر وأجدى من الجهود المضنية التى قد تبذل بعد ذلك لتغييره، وان الناس - حتى الاذكياء منهم - يسلكون فى عصرنا هذا وفق انطباعاتهم، فلا أحد لديه وقت للتفكير الطويل لتكوين الاقتناع! وبعد هذه الدقائق الخمس قد تأتى التلقائية بكل ما يمكن أن تحمل من مخاطر ومغبات!

وله أيضا مكان مفضل، فهو يؤثر تلك المساحة الضيقة والوعرة قرب القمة، تلك المساحة التى تفصل بين عشرات الرجال من ذوى السلطة والنفوذ الذين يحتلون المراكز العليا، وبين مئات الرجال من أصحاب المواهب والقدرة على الانجاز، الذين يقبعون فى ظلال المركز الثالث فى مختلف مجالات الفكر والعمل!

ودائما يتحرك فى رشاقة العصفور - ومهما يكن وزنه - بين هؤلاء وأولئك، واذا كان قد أدرك نقاط القوة والضعف لدى من هم دونه، فهو بحكم موقعه وتعامله يدرك أيضا نقاط القوة والضعف لدى من هم فوقه، وبحكم هذا الموقع أيضا يمسك فى يده بكثير من الخيوط

الصاعدة والنازلة، ويرى المشهد من فوق ضروراته ومحظوراته، ويراه من تحت، طبيعته وخصائص العاملين فيه، ومن هذا كله يدرك أنه لا توجد لغة مشتركة كافية بين هؤلاء وأولئك، وأن من مصادر قوته أنه هو وحده الذى يصبح عارفا وصانعا لهذه اللغة المشتركة، وأنه بدونه تتشابك الخيوط الصاعدة والنازلة، وان هذه الخيوط تمسك به بقدر ما يمسك بها، ويكثر حديثه عن ضرورة اللغة المشتركة والرؤية المشتركة بقدر ما يعمق شعوره بصعوبة ذلك، ومع هذا التوحد والترابط بينه وبين من هم فوقه ومن هم دونه يزداد شعوره بأنه الواحد المتعدد، ويؤكد لمن هم دونه أنه واحد منهم مقاتل من طرازهم، له فى الحقيقة نفس اهدافهم، ولولا دوره التاريخى لأسعده أن يكون مثلهم يغبر يديه فيما يغبرون فيه ايديهم وجباههم من فكر وعمل، وهو يختار من عمل هؤلاء المبدعين ما يناسب تمام ما يطلبه رجال الصف الاول، يعرف كيف يقدمه فى الوقت المناسب، وبالطريقة التى تقنعهم بأنه هو تمام ما يلبى احتياجاتهم.

وكثيرا ما يبدو فى وقت واحد فى صورة المنتصر والمنهزم، البطل والضحية، فهو يحقق لمن هم دونه بعض أحلامهم، ولمن هم فوقه كل ما يمسك به فوق مكانه المفضل!! وذلك جزء من أسلوب دفاعه العظيم.

تتغير أمامه الوجوه من فوق، حيث تهب العواصف الجامحة عند القمة، ومن تحت حيث يثور أحيانا بعض هؤلاء المبدعين، أو يدركهم التعب واليأس، حيث يمر الوقت دون أن يحدث التغيير بينما تتسع المسافة بين واقعهم واحلامهم، ويبقى هو فى مكانه الاثير، فالقادمون الجدد عند القمة يحتاجون إلى دليل إلى قاعدةِ الهرم الذى يتربعون فوقه، بينما هو قادر على أن يجتذب البدائلَ لاولئك الذين ثاروا أو تركوا مواقعهم، وما أكثر البدائل على منحدر الجبل...! أنه هو وحده الذى يعرف مواقعهم ولغتهم، وهو يعرف كيف يجدهم هناك متعبين قابلين رغم ذكائهم، لان يعانقوا السراب والوهم، لا أحد مثله يعرف هذا النوع من البشر، الذين يبدون خارج نطاق نبوغهم ومواهبهم كالاطفال، هم دائما ينشدون الحماية والأمن،

ليتفرغوا لما يعتقدون أنه مهمتهم الوحيدة فى الحياة، والتى يمارسونها بنفس البراءة والحيوية التى يمارس بها الاطفال العابهم!

أنه يصطادهم فى هذه الدقائق الخمس التى هى معجزته الحقة، والتى تصبح دون أن يدرى هى كل حياته!

امتيازه أو مأساته أنه وهو يحدثهم عن أحلامهم فى التغيير يبدو حقا وكأنه يتحدث عن أحلامه هو، هو نفسه لم يعد يعرف عدد الاشخاص الذين يتحدثون بداخله، يخيفه بقدر ما يرضيه أنه يبقى فى مكانه وسط كل هذه المتغيرات، قدرته على التذكر لا يعادلها إلا قدرته على النسيان!!

لا حديث له الا عن ضرورة التغيير، ولكنه هو بدوره، بموقعه، بأسلوب تعامله، يبدو نموذجا رائعا لما لا يتغير.

له سمات العباقرة دون أن يكون له انجازهم وابداعهم، يستخدم كل الكلمات التى فى قاموس الحب والكراهية والثورة والتمرد، ولكنه بهدوئه وتماسكه واستمراريته لا يعرف الحب ولا الكراهية، ويمارس صلحا مذهلا بين كل

المتناقضات لصالح بقائه فى موقعه!

لا يخاف شيئا مثلما يخاف لحظة فراغ، تستدرجه إلى التفكير لحظة فيما يجرى من حوله، فى هؤلاء الذين خدمهم أو استخدمهم! ولذلك فهو يحيا فى العمل أو يموت فيه، ويصبح ذلك (ربما دون قصد) من رصيد قوته وبقائه فى موقعه! دائرة معارفة تتسع لمئات الاسماء والشخصيات من كل الطبقات والجنسيات والتخصصات، وطبعا لا يعرف شيئا واحدا عن أى واحد من هؤلاء خارج ما يتصل بعملهم معه!

يبدو أنه يملك كل شئ،ولكنه لا يكاد يملك حتى حياته التى تختصر اخيرا فى هذه الدقائق الخمس!

وهو يعرف قيمة هذه الدقائق، حيث يلتقى مصادفة بواحد ممن عملوا معه أو عمل معهم.. لسنين قصيرة أو طويلة.. إن أشياء غامضة تتحرك فى داخله. عواطف كالزلازل أو البراكين.. أشياء تنذر بما لا قبل له به، وآنذاك يبدو تدريب الدقائق الخمس العظيم، تأتى الابتسامة المحسوبة، والكلمات المحسوبة، كل الاسلحة

التى تختصر المعركة فى دقائق، دون أن تسمح بالتورط فى احساس واحد بالاسى، أو بالندم، أو بالحب، او بالكراهية، أو بالشفقة على نفسه أو على غيره!!

يقول بعض من يعرفونه، أنه لا غنى عنه، فهو موجود فى كل العصور وفى كل بلاد الدنيا، وأنه من صلبه ينحدر كل رجال الادارة العظام، الذين هم سادة المستقبل دون ريب، حيث العمل والنظام الاجتماعى كله أكثر تعقيدا وأكثر حاجة إلى امثاله وان التغيير الوحيد الممكن هو ما قد يمس اسلوب ادائه لهذا الدور!

بينما يقول البعض الاخر: ان وجوده بهذه الصورة هو مرحلة من مراحل التطور الإنسانى، وسيأتى يوم لا محالة يتطور فيه رجال الصف الثالث، يحطمون شعورهم الزائف بالعجز والحاجة إلى الحماية، يعنون بتنمية ذواتهم بقدر ما يعنون بتنمية مواهبهم وقدراتهم، يجمعون بين القدرة على الابداع والقدرة على توظيف هذا الابداع فى وقته ومكانه.

وآنذاك يتغير رجال الصف الاول أنفسم، فلن تكون

هناك سوى لغة واحدة يتكلمها كل الرجال، وآنذاك قد تتغير الحياة كلها!

وإلى ان يحدث ذلك أو لا يحدث، فسيبقى هذا الوجه فى المرآة جديرا بكل ما نملك من آسى ومحبة، ورغبة فى التفهم، ورغبة فى المواجهة والتغيير!

ممثل وحيد

كان يبدو وكأنه روح المجلس، منه يبدأ الحديث، ومن خلال تعليقاته الساخرة تتغير دفة الحديث من موضوع لآخر، وعن كل موضوع لا تخلو جعبته من حكاية أو طرفة أو واقعة يجيد روايتها بصوته القوى الواثق المعبر، وعادة ما يندمج فى الحكاية، فيتلون صوته ويتنوع ايقاعه بما يجسد الشخصية أو الموقف، وتشارك اليدان والرجلان والعينان، وربما الجسد كله فى التعبير، وينشأ لديه شعور خفى مستبد بأنه المسئول الأوحد عن إحياء الحفل، ونجمه الوحيد، وبقصد أو بلا قصد يقطع على الحضور أية محاولة للمشاركة أو التسلل... وينشأ لدى الحضور نوع من التبلد الناجم عن الرغبة فى الاعتماد والتسلية المجانية، وربما شعور خفى بالعجز عن مجاوراة تلك الطاقة المتفجرة والمتدفقة.

وخلال الجلسة يتنامى شعوره بالتفوق والتفرد، فى

مقابل شعور الآخرين بالخوف من الفشل فى اقتحام تلك المبارة غير المعلنة، فكلماته وحدها أصبحت لها القدرة على تفجير الضحكات، وقبل أن ينطق بها، وكلماتهم تتحول إلى نوع من حديث النفس يجربون أثرها فى أذهانهم قبل النطق بها، فتبدو باهتة وعاجزة عن مسايرة ذلك التيار أو اللحاق به.

وشيئا فشيئا تموت روح الحوار.. والمشاركة، ويتحول «الصالون» إلى مسرح صغير، يقف على خشبته ممثل وحيد متفرد، فى مواجهة جمهور مستسلم ووحيد كذلك.

ممثل بلا نص، ولا عقد، ولا حتى مجرد اتفاق على شئ.. فى البداية كانت تجتذبهم الرغبة فى المشاركة، ثم استدرجهم روح الفرجة، ثم ألفوا أنفسهم محاصرين فى مقاعد المتفجرين، دون ان يملك العرض المرتجل أدنى قدرة على تحريرهم من أنفسهم أو من مقاعدهم.. لقد تسللوا واحدا وراء الآخر، من خلال عيونهم نصف المفتوحة، وأفواههم نصف المطبقة، وخلفوا فى المجلس بعض الضحكات والتعليقات لتضليل الممثل الوحيد، وحتى

لا يعرف المكان الذى ذهبوا اليه!

وفجأة يجئ الصمت، لا أحد يعرف متى يجئ ولا كيف؟ يلتقى صمت الممثل بصمت النظارة، ويبدو الامر لمن بقى متابعا فى المجلس وكأن بئرا عميقة أنفتحت فجأة تحت أقدام الممثل الوحيد، فهوى فى أعماقها بلا صوت أو أثر.. بالنسبة للممثل يبدو الأمر وكأن الآخرين هم الذين اختفوا فجأة فى أعماق البئر..

أصبح لا يراهم ولا يحس بوجودهم، وعادة ما يسبقونه إلى ادراك الموقف، فيحاولون ستره بكلمات متفرقة من هنا ومن هناك، وضحكات كسول باهتة وكأنما أدركوا جزءا من مسئوليتهم فيما انتهت اليه الامور، وهو فى ذهوله المفاجئ، لا يرى ولا يسمع ولا يحس، تنكسر النظرة فى العينين، وتنطبق الشفتان فى تبلد كظيم، واحيانا تتراخى اسارير الوجه كله، وتموت الحركة، وتتسرب الطاقة الهادرة فى شقوق مجهولة، يبدو بعضها فى تلك التجاعيد التى تظهر فجأة فى صفحة الوجه الراكد الخامد. كأن ستارا من الكآبة هبط فجأة فغطى

على ذلك العرض الصاخب، فبعض الحضور قد يتصور أن هذه الكآبة المفاجئة، ربما كانت مجرد استراحة بين الفصول، وأن الممثل سيعود إلى تقديم فقرة جديدة من العرض، وهكذا يظل مستسلماً لحالة التبلد التى كان فيها فى انتظار ان يرتفع الستار.

وهؤلاء قد يطول انتظارهم، أما الآخرون فإن عيونهم تتبادل فى صمت هذا السؤالك

– هل تكون حالة الكآبة هى الستار الذى نزل فجأة لسبب مجهول فغطى على العرض؟

أم أن هذه الكآبة هى العرض الاصلى الدائم فى حياة هذه الشخصية.. ولم يكن ما يقدمه منذ لحظات سوى مجرد ستار..؟!

العاصفة

هو لا يعرف الحياد، فهو إما معك أو ضدك. لا تستهويه لعبة البحث عن الحقيقة المجردة أو المعقدة، فحقائق الأشياء أو الأعمال أو الناس تتمثل دائما فى نتائجها، فيما تعنيه له، فى موقفه منها أو موقعها منه.

وهو لا يعترف بالهدوء أو الأناة فهو إما هادر بالفرح أو الغضب، والدنيا من حوله لا شئ فيها يدعو إلى التأمل أو الرضى أو البسمة السعيدة أو المريرة.

فناسها وحيوانها وطيورها وأشياؤها صيد يمكن اقتناصه، بصرخات الترويع أو طلقات الرصاص، أو بعض الطعم فى الشباك، والمخلوقات التى يتحاج صيدها إلى الصبر والهدوء والكلمات الرقيقة لا تثير فيه شهوة الصيد.

نهاره نشاط متصل، وساعات نومه القليلة تعجز عن أن تسرق له لحظات من الدعة، فأحلامه كوابيس من

المغامرة أو الفزع أو محاولة اقتناص المستحيل أو الموت في سبيله.

ما أصعب موقفك اذا كان ضدك، فهو لا يرضى بمجرد هزيمتك أو انسحابك، ولكن رحمة الله قد تهبط فجأة حين ينساك - فهو أيضا عظيم النسيان لأن معركة أخرى في حجم طاقته قد بدأت هناك، وأنت بلا مقاومة أصبحت جزءا من العالم الساكن الذى لا يروق له.

وما أصعب موقفك أكثر إذا كان معك، وكثيرا ما لا تعرف لماذا هو معك؟ طبعا هو يعرف، ولهذا سوف يقبل عليك كالعاصفة من كل الجهات، يحاصرك بالاعجاب والمودة والخدمات التى لا تطلبها وربما لا تحتاجها.

وهو لا يحتاج إلى المناسبات ليقدم لك عرابين حبه، فالحب الحقيقى كما يتحدث عنه هو الذى لا ينتظر مناسبة للتعبير عن نفسه، ولا يحتاج إلى الاسباب لتبرير وجوده، فهو سر من اسرار الوجود يقف خارج سلسلة الأسباب والمسببات.

ومهما يكن ذكاؤك وتجربتك وأنظمة دفاعك، وقدرتك

على الصمود فغالبا ما تنهار حصونك أمام هذا الفيضان الجارف من العواطف، وقد تعيد حساباتك وفكرتك عن الناس أو عنه، وقد يصل بك الامر إلى حد الشعور بالذنب حيال حذرك السابق منه، ولكنك فى أكثر الأحوال سوف تبقى مستسلما منتظر مستمتعا بهزيمتك وربما متفرجا، غير قادر أو غير راغب فى التفكير فى حجم الأنانية التى ينطوى عليها موقفك، غير قادر أو غير راغب فى ادراك أنك تصبح دون ان تلاحظ جزءا من نسيج عالمه الذى يتلف حولك بأذرع قوية الاغراء والصلابة تسعى إلى ابتلاعك، ثم يجئ يوم لا يطول انتظاره، فتقول أو تفعل مالا ينسجم مع هذا العالم الذى أصبح يحيط بك، أن تعترض فى موضوعية شديدة على شئ يقوله أو يفعله ذلك الذى يقف وراء هذا العالم معتقدا انك تمارس جزءا طبيعيا من حريتك.. آنذاك تمطر السماء دما وصواعق على نحو مفاجئ لراحتك التى آثرتها منذ البداية. آنذاك تصبح العاق الخائن الناكر للجميل، الناكث للصداقة، وعبثا تحاول أن تفهم أو تناقش أو ترد، عبثا تحاول أن

تتفاوض حول حدود آمنة لما هو أنت ولما هو هو، عبثا تحاول أن تدافع عن حريتك أو حتى حريته، عن معنى الصداقة التى كانت أو تكون.

ان طوفان الحب يصبح فجأة طوفان كراهية وحقد، يصبح نارا لا تحرقه لانه هو فى هذه اللحظات يكون قطعة من النار.

وقد تكون من النوع الذى لا يتحترق بسهولة، أو مجنونا بالرغبة فى أن تفهم فيمتد صبرك، وتنتظر حتى يهدأ البركان، وتحاول أن تسمع وتفهم وآنذاك قد تكتشف من خلال ما يقوله أو ما لا يقوله، إن هذا الصديق القوى الواثق القادر المانح بلا حدود للحب والكراهية مجرد إنسان يقتله الخوف، وتنهشه الشكوك والأوهام، أو لعل الخوف قتله منذ سنين بعيدة، وأنه منذ تلك السنين يقاتل بحثا عن لحظة طمأنينة حقيقية لا يجدها، ولعله كان يجدها دائما، ولكنه فى خوفه كان يسحقها تحت أقدامه، أو أقدام مخاوفه وشكوكه وأوهامه، ولعله التقى فى سعيه المحموم بعشرات الخائفين من أمثاله فكانت شكوكه تجد

دائما طعامها المفضل، فعاشت ونمت وترعرعت وتأكد له أنه لا مفر أمامه من أن يكون مفترسا أو فريسة.. وحين فقد ثقته بالناس راح يمنحها للأشياء، فالأشياء وحدها هى التى يمكن امتلاكها، واستعمالها على الوجه الذى نحب، الأشياء لا تعترض، ولا تقول لا، ولا تخون، وقد تغنيه عن الناس الذين يختلفون ويخونون ويعترضون، ولكن هذه الأشياء فى تكاثرها تبقى عاجزة عن منح الطمأنينة والحب، بل قد تكون بهذه المثابة مصدرا جديدا للقلق والشك والمخاوف، فالأشياء لا توجد فى الفراغ فهى مع الناس ومنهم وبهم، وهكذا يبدأ يتعامل مع الناس كما يتعامل مع الأشياء، يحاول امتلاكهم وشراءهم بالحب أو سحقهم بالكراهية.

وفى كل مرة يخسر الناس ولا يكسب الطمأنينة، مع أنه لا حديث له إلا عن الحب ونصف ترسانته من أسلحة الحب، فالحب لا يوجد إلا مع الحرية وهو أسير شكوكه وأوهامه، والحرية لا تمتلك سوى نفسها ولا تقدم لأحد سوى ما يقدر على فعله أو قوله أو الشعور به فى لحظة

حرية مسئولة.

سوف تتعب إلى حد اليأس وأنت تحاول أن تنقذ نفسك أو صديقك من عالم شكوكه ومخاوفه، ليجد فى نفسه شجاعة مواجهة الحرية، وانتظار عطاياها التي لا تشترى ولا تغتصب، ولا تقبل الاغراء أو التهديد.

فإذا شعرت بالعجز عن نزع سلاح صديقك فلماذا لا تحاول أن تبدأ بنزع سلاح مخاوفك جزء من مخاوفك؟

فلعلنا جميعا نحمل فى وجوهنا بعض ملامح هذا الوجه الذى رأيناه فى المرآة.. نعم.. فنحن نحمل من هذه الملامح، بقدر ما نرغب فى امتلاك الأشياء ونرغب عن الاكتفاء باستخدامها.

بقدر ما نجد فى صدورنا من الضيق من أولئك الذين يختلفون معنا فى تقدير الأمور أو فى زاوية الرؤية.

بقدر ما نخاف من مواجهة الحرية بمعناها العميق الشامل باعتبارها حقا للآخرين ولنا بنفس المدى والمقدار.

فهرس الكتاب

ذلك الأثر..... 7

مفاجآت سلمى عواد التى لا تنتهى..... 21

والدعوة عامة..... 59

حالة غير مستعجلة..... 85

فى هذا الصباح..... 103

الأعمى والبحث عن قطة سوداء..... 115

الشوط الثانى..... 125

فى المرآة: ملامح فى وجوه.

* النبيل والوغد 139

* رجل لا يتجاوز الدقيقة الخامسة من وقته... 149

* ممثل وحيد..... 159

* العاصفة..... 165

كتب للمؤلف

صدرت للمؤلف سلسلة الأعمال الكاملة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب المجلدات التالية :

١- المجلد الأول فى القصة القصيرة بعنوان فتاة فى المدينة سنة ١٩٩٢ ويضم المجموعات التالية :

- فتاة فى المدينة

الطبعة الأولى دار الآداب بيروت ١٩٦٠

- ابتسامة غامضة

الطبعة الأولى الدار القومية القاهرة ١٩٦٣

- الناس والحب

الطبعة الأولى دار الآداب بيروت ١٩٦٦

٢- المجلد الثانى فى القصة القصيرة بعنوان «الوهم والحقيقة» ١٩٩٣، ويضم المجموعات التالية :

- الوهم والحقيقة

الطبعة الأولى الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤

- مهمة غير عادية

الطبعة الأولى دار الآداب بيروت ١٩٨١

الطبعة الثانية مكتبة الاسرة ١٩٩٨

- الزعيم

الطبعة الأولى الهيئة العامة لكتاب ١٩٨٢

- الجميع يربحون الجائزة

الطبعة الأولى مختارات فصول لكتاب ١٩٨٤

الطبعة الثانية مكتبة الأسرة ١٩٩٦

٣- المجلد الثالث فى الرواية بعنوان «العودة إلى المنفى» ويضم روايتى:

- العودة إلى المنفى

الطبعة الأولى سلسلة روايات الهلال ١٩٦٩

الطبعة الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤

- ضد مجهول

الطبعة الأولى سلسلة روايات الهلال ١٩٧٥

٤- المجلد الرابع ويضم مقالات فى نقد القصة والرواية العربية ١٩٩٧ بعنوان «طرق متعددة لمدينة واحدة «الهيئة المصرية العامة للكتاب.

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٠٢ – بالأصابع التى كالمشط .... شعر : محمد سليمان

٢٠٣ – كويلا .....قصص : يحيى مختار

٢٠٤ – الشرنقة ..... قصص : سليمان فياض

٢٠٥ – مدينة اللذة ..... رواية : عزت القمحاوى

٢٠٦ – كتاب الأرض والدم .. شعر : محمد عفيفى مطر

٢٠٧ – طراوة العين .....قصص : نبيل نعوم

٢٠٨ – نخب اكتمال القمر .....قصص : ابتهال سالم

٢٠٩ – طلل النار ..... قصص : يوسف أبو رية

٢١٠ – الواحد الواحدة ..... شعر : حلمى سالم

٢١١ – فوق الحياة قليلا ..... رواية : سيد الوكيل

٢١٢– برجالاتك ..... قصص : أمين ريان

٢١٣– وقائع استشهاد اسماعيل النوحى: رواية: سمير ندا

٢١٤ – فخاريات ..... شعر : اسامة شهاب

٢١٥ – رجف الذاكرة ..... قصص : رضا امام

٢١٦ – تفاصيل وتفاصيل أخرى.....شعر : ابراهيم داود

٢١٧ – هى وخادمتها ..... قصص : هناء عطية

٢١٨ – كتاب العشق .....شعر : عبد الدايم الشاذلى

٢١٩ – حكايات جار النبى الحلو.. قصص : جار النبى الحلو

٢٢٠ – الحنين ..... شعر : عبد العظيم ناجى

٢٢١– نسيم الصبا..... قصص : زينب صادق

٢٢٢– بندق ..... قصص : محمود حنفى

٢٢٣– الغالب والمغلوب..... رواية : مصطفى الأسمر

٢٢٤– مساحات للتعب ..... شعر : سمير عبد الباقى

٢٢٥– مشتهيات ..... رواية : سهام بدوى

٢٢٦– أشعار ..... شعر : ابراهيم رضوان

٢٢٧– القابض على الجمر ..... قصص: رفقى بدوى

٢٢٨– حلاوة الروح ..... شعر : أمين حداد

٢٢٩– يونى سكس ..... قصص : علاء البربرى

٢٣٠– الأرض جحيم الخائفين ..... شعر : حسن عقل

٢٣١– حلوانى عزيز الحلو ..... رواية : محسن يونس

٢٣٢– فراديس الحوارى ..... شعر: ابراهيم خطاب

٢٣٣- مقاطع من جولة ميم المملة ..... قصص: حافظ رجب
٢٣٤- هذا دمى وهذا قرنفلى ..... شعر : وليد منير
٢٣٥- توتة مائلة على نهر ..... قصص: محمد ابراهيم طه
٢٣٦- معلَّقةٌ بشص ..... شعر : فريد أبو سعدة
٢٣٧- موسم الرياح ..... رواية : سمير المنزلاوى
٢٣٨ - كيف طاوعك الرحيل؟..... شعر : مختار النادى
٢٣٩- تحولات إنسان عابر..... قصص : جمال زكى مقار
٢٤٠- خيانات ذهنية ..... قصص : مى التلمسانى
٢٤١- ذهبت إلى شلال..... قصص: بهاء طاهر
٢٤٢- المصرون على الفرح ..... قصص: نورا أمين
٢٤٣- تل القلزم ..... رواية : محمد الراوى
٢٤٤- لحظات غرق جزيرة الحوت ..... محمد المخزنجى
٢٤٥- صور من ألبوم نيويورك..... شعر : أحمد مرسى
٢٤٦ - بروفات..... قصص : عفاف السيد
٢٤٧- ريحة البلاد التانية ..... شعر : ابراهيم سلامة
٢٤٨- ثلاثية الوجع ..... قصص : بهاء السيد
٢٤٩ - تعاسات شكلية..... قصص : محمد الشاذلى

٢٥٠ – كوميديا ..... شعر : فارس خضر

٢٥١ – آخر حبه مزيكا ..... شعر : صادق شرشر

٢٥٢– السيدة التى ..... قصص : صبرى موسى

٢٥٣– شال من القطيفة الصفراء..... قصص : عبد الوهاب الأسوانى

٢٥٤– فى هذا الصباح ..... قصص : أبو المعاطى أبو النجا